

مكتبة العامة للاستعلامات

كتب مترجمة

رقم ٧٢٨



مناحم بين

التوراة والبندية

تأليف: فيكتور مالكا

إهداء إلى
مكتبة الإسكندرية
من

الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
رقم ٧٢٨

لواء ح
مفتي الجمهورية
مفتي الجمهورية

مناحم بيچين

التوراة والبندقية

تأليف: فيكتور مانكا

صفحة	
٥	مناحم بيجين » التوراة والبندقية
٧	الفصل الأول : من هو مناحم بيجين
١١	» غروب دولة حزب العمل
١٣	من أجل بضع دقائق
٢١	مجتمع في أزمة
٣٤	الفضائح
٤٢	صراع على القسمة بين رابين وبيريز
٤٤	عملية عنتيبي
٤٥	عندما كان أطفالنا يكون على القنصلية كان العالم يلزم الصمت
٤٧	البديل المستحيل
٤٩	الصهيونية وتياراتها
٥٩	على أعتاب الحكم
٦٣	الثورة بالانتخابات
٦٥	طفولة زعيم
٧٤	فترة عصيبة
٨٢	تعلم السلطة
٨٩	اسرائيل الجديدة
٩١	من بن جوريون الى بيجين
١١٣	العودة الى اليهودية
١١٥	المجتمع العلماني
١٢٢	البجينية
١٢٣	من يخلف بيجين
١٢٨	الأمل
١٣١	لقد خلق الرحلان ليلتقيا

مناحم بيجين التوراة والبندقية

بقلم : فيكتور مالكا

ان النفور من شيء يساعد على تحليله
بصورة أفضل بيد ان التعاطف معه
هو وحده الذى يساعد على فهمه .
(اندريه سينجرىد)

لا يمكن انجاز عمل كبير بدون رجال كبار ، وقد أصبح هؤلاء كذلك
لأنهم أرادوه لأنفسهم .

(شارل ديغول)

تولدت فكرة هذا الكتاب من ذكرى واستياء . ولنبدأ بالذكرى : لقد
انعمل المؤلف انفعالا عارما عندما كان طفلا يعيش في مملكة الفقر والضوء
المتماثلة في الجيتو الغربى ، لدى قرائته لكتاب « ثوره اسرائيل » لمناحم
بيجين حيث وجد ان تاريخ شعبه يعد أيضا تاريخ المقاومة والشجاعة .
ومنذ ذلك الحين ظل المؤلف يكن لبيجين التقدير والاعجاب ، وأن لم يوافق
على آرائه السياسية .

اما عن الاستياء فقد جاء نتيجة الاقوال المخالفة للصواب التى تسرعت
الصحف ونشرتها عن مناحم بيجين غداة الانتخابات الاسرائيلية التى اجريت
في مايو سنة ١٩٧٧ بينما كان الرجل يتأهب لتولى زمام امور اسرائيل
ومستقبلها .

وقد أراد المؤلف تحليل تلك الأفكار المسبقة ومكافحتها في بعض
الاحيان .

ها هو اذن ملف بيجين . ولا يتمثل الهدف هنا في كتابة قصة حياة الرجل ولكنه في رسم صورة لشخصية رجل كان على موعد مع التاريخ .

فما هو لغز هذا الرجل ؟ ومن أين بسنمد سر قوته ؟ وهل سسيقود شعبه نحو الحرب الاسرائيلية - العربية الخامسة التي يعلم الجميع أنها ستسفر عن نتائج وخيمة ، أم سيكون الرجل الذي اختاره التاريخ ليوقع على اول معاهدة سلام تبرم بين اسرائيل وجاراتها ؟ .

ومن ذا الذي يستطيع أن يتوقع شيئا اليوم بينما المسرح السياسي في الشرق الاوسط يشبط همهة جميع التحاليل ويبدو خصبيا بالمتناقضات ويمكن أن يخبىء الشئ ونقيضه على السواء ؟

ولا يدعى مؤلف هذا الكتاب أنه سيرد على جميع الاسئلة التي تطرح اليوم على دولة اسرائيل في مواجهة العالم العربى . ومع ذلك فإنه قد يسهم في التعريف بدرجة اكبر برجل من أكثر الرجال جاذبية على المسرح السياسى الاسرائيلى ربما سيتشارك بصماته على التاريخ في الغد . .

« فيكتور مالكا »

الفصل الأول

من هو مناحم بيجين

« يشبه التاريخ معرضا للوحات قليل

منها أصلى ومعظمها تقليد »

(اليكسى دى توكفيل)

(من كتاب : « نظام الحكم القديم والثورة »)

السابع عشر من مايو ١٩٧٧ . اقتربت الساعة من الحادية عشرة مساء وخلت شوارع اسرائيل من المارة . أن الاسرائيليين قابعون في ديارهم ، منتبهين أمام أجهزة النليفزيون لمعرفة النتائج الاولى للانتخابات . . وأخذ هنوك سمث ، المتخصص في شؤون الانتخابات ، يقلب أوراقه بعصبية وهو يعلن بلهجة المهاجرين الأمريكيين : « تدهور واضح لحزب العمل الذي فقد ثمانية عشر مقعدا ، حصل الليكود على أربعة وأربعين مقعدا وداشن على خمسة عشرة مقعدا . ومن المؤكد أن مناحم بيجين سيشكل الحكومة الجديدة » .

أنها العاصفة : أهم انقلاب سياسى عرفته اسرائيل انقلاب من القاع - ثورة انتخابية فجائية ؟ غير متوقعة . أذهلت الجميع حتى صانعيها انفسهم .

اهتز عالم . وانتهت بصورة مؤلمة خمسون عاما من هيمنة العماليين ، كانت قد أنتهت بالمزج بين الدولة والحزب في علاقة تشبه الملكية . .

وفي الساعة الواحدة والنصف صباحا ، ظهر شيمون بيريز الذى لم يحالفه الحظ بالفوز بمنصب رئيس الوزراء في مقر الحزب وهو منهك القوى وصاح قائلا : أصبنا بنكسة خطيرة . ولكنها ارادة الامة .

وانطفأت الأنوار في مقر حزب العمل الذى يقع في المبنى رقم ١١ شارع هياركون في تل أبيب بعد أن تجاهله الصحفيون . وانتقلت الفرحة الى الجانب الآخر من المدينة والى الطرف الآخر من التاريخ . .

ضج شارع كنج جورج بالهتافات . تدفقت الجماهير بلا انقطاع على « قلعة زيف » مقر الليكود وهى تهتف : « بيجين بيجين » وبدأ بيجين وقد

فقد بعضا من وزنه (فقد كان يتمثل للشفاء بعد أزمة فلبية كادت أن تؤدي بحياته ونحرمة من نصره) مرتديا سترته ورباط عنقه على الباب وهو يبتسم تلك الابتسامة التي لن يفقدها أبدا .

فبعد تسعة وعشرون عاما من المعارضة ، ذاق أخيرا نصرا طال رفضه كما طال انتظاره . ورفع ذراعه مشهرا علامة الانتصار وهي حركة محببة إلى قلبه - وقال وسط الهتافات والتصفيق « يمثل هذا اليوم تحولا في تاريخ الشعب اليهودي والحركة الصهيونية » .

وعلى أجهزة التللكس في السفارات وصلات التحرير توالى البرقيات الهامة . . وحملت هذه البرقيات اسم رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد وطرحت التساؤلات في العالم كله من أقصاه الى أقصاه . . وبدا أخراج الملفات القديمة من الارشيف وسؤال الخبراء : من هو مناخم بيجين ؟ وفي واشنطن ، النى يمكن اعتبارها أقرب الضواحي السياسية للقدس ، كانوا يعرفونه بالكاد . . فلم يلتق الرئيس جيمى كارتر ببيجين من قبل (رغم أن هذا الأخير طلب الاجتماع معه ، لدى مروره بالعاصمة الأمريكية في بداية عام ١٩٧٧) كذلك وزيره سيروس فانس . وحتى هنرى كيسنجر ، الذى قابل كثيرا من الشخصيات فى اسرائيل أثناء جولانه المستمرة ، لم يكن لديه الوقت للاجتماع بزعيم المعارضة ، ومما لا شك فيه أنه كان يعتبر حزب الليكود كان مهما . .

ان الرحالة الدبلوماسى الأمريكى لم يتبادل مع بيجين سوى عبارات قصيرة خلال حفل استقبال لم يترك لكسينجر ذكرى طيبة .

كسينجر : أنك الرجل الذى يريدنى أن اذهب الى الجحيم ؟

بيجين : أنك مخطيء يا سيدى الوزير . انى أتمنى أن تذهب الى الجنة ولكنى آمل أن تستحق ذلك .

ولم تكن باريس أكثر حظا . بل أن صحفى الاذاعة كانوا يتلثمون وهم ينطقون باسم بيجين « وأعلنت إحدى اذاعات الأقاليم لمستمعيها أن السيد « محمد بيجين » فاز فى الانتخابات . . ، ولم يكن متبقيها لها سوى أن تضيف كلمة « الحمد لله » . ولا يشكل اصدقاء الليكود السياسيون فى فرنسا عددا غفيرا ، وأن كان بيجين قد احتفظ ببعض العلاقات الوطيدة منذ الأيام البطولية لجماعة أرجون والمقاومة اليهودية .

وكان جاك سوستيل وحده هو الذى أرسل برقية تهنئة غداة الانتخابات التشريعية الى الرجل الذى كتب له مقدمة كتابه « ثورة اسرائيل » وهذا شئ قليل اذا قيس بالدولة الاشتراكية « ذات الاعتبار التى كان أعضاء حزب العمل يتفاخرون بالانتماء اليها . . (ومقابل ذلك ، لم تتأخر ردود الفعل العربية . وكانت التعليقات بعيدة عن الرقة تماما ، مثلما كان متوفعا . فقد وصف راديو دمشق مناحم بيجين بأنه « عنصرى وارهابى » وصرح محمود رياض امين عام الجامعة العربية قائلا : لقد أدخل الارهاب فى المنطقة » وأضاف كريم خلاف عمدة رام الله : « أن الحرب الاسرائيلية العربية الخامسة فى طريقها الى الاندلاع » .

ومن العريب أن انور السادات الذى كنا ننتظر تعليقه ، قد تحدث بلهجة أقل حدة . . ان الرئيس المصرى لا يرى أى اختلاف بين رابين وبيجين فهما من وجهة نظره سواء . فهل كان السبب فى ذلك هو حرصه على الاحتفاظ ببعض فرص انعقاد مؤتمر جنيف الذى تتمناه مصر كثيرا منلها فى ذلك مثل الولايات المتحدة ؟ لقد قدم معلق اسرائيلى نفسيرا أكثر تنوعا اذ كذب يقول صرح الرئيس السادات عام ١٩٧٣ بأنه قرر شن حرب الغفران لكى يجعل حزب العمل يدفع ثمن موافقته على المبادئ التوسعية . ويكرر التاريخ نفسه بصفة دائمة . ولكن الثمن سيرتفع . مع « بيجين » .

من هو مناحم بيجين ؟ سرعان ما سنعرفه . فقبل أن بتولى مهام منصبه كشف رئيس الوزراء عن طابعه الخاص غداة الانتخابات . . اذ كانت أول زيارة يقوم بها ، زيارة لمستعمرة « قدوم » فى الضفة الغربية لنهر الاردن حيث بارك أنصار « اسرائيل الكبرى » أعضاء منظمة « جوش ايمونيم » (كتلة الايمان) واجاب بيجين باستهزاء على صحفى كان يسأله عما اذا كان سيضم الضفة الغربية لنهر الاردن ، قائلا : « لا يمكن أن نتحدث عن ضم أرض تعد جزءا لا يتجزأ من اسرائيل » وتمتت سيدة من جماعة جوش ايمونيم قائلة : « ها هو قد جاء عهد المسيح وقالت الصحافة الامريكية التى وصفت بيجين « بالحماس الشديد » : لقد جاء « عهد الصقور » . . ونشرت مجلة نيويورك على غلافها عنوانا يقول : « يوم الصقور » . . . اما صحيفة التايمز فقد تحدثت عن انتصار الصقور المتطرفة . . وهكذا حددت هاتان الصحيفتان ، اللتان لم تتهما أبدا بمعاداة اسرائيل الاتجاه العام .

ومن الذى لا يخشى مناحم بيجين ؟ ذلك الارهابى ، زعيم منظمة أرجون وشبح المقاومة المعادية لبريطانية ، ومؤيد القضية اليهودية والمناضل من أجل إقامة « إسرائيل الكبرى » ؟ سرعان ما تكونت الأسطورة وتبلورت السمعة . ونطق بالحكم . ولن يكون من السهل معارضة التيار . وتعين على بيجين أن يوفد اثنين من أفضل مستشاريه هما صمويل كاتز ، الى الولايات المتحدة ، وإيلي بن العازر ، الى باريس ، فى مهمة تستهدف طمأنة العاصمتين واعادة الاوضاع الى حالتها الطبيعية ..

أن الحزب الذى تولى السلطة فى إسرائيل ظل فى صفوف المعارضة طوال ربع قرن دون أن يئأس ويرجع انتصاره الى صناديق الاقتراع وحدها .

كما يرجع الى التفتت البطيء الذى اصاب مجتمع حزب العمل الذى تآكل من الداخل نتيجة تفشى الفضائح والخدع . ويدين ليكود بهذا الانتصار - وهذا يؤكد بالارقام - للقوى الحية فى الأمة ، وللشباب الذى تحول عن طبقة سياسية زال نفوذها ، وللعمال الذين صدمهم انتشار الاختلاسات والرشاوى واستغلال المناصب وأخيرا الى السفارديم (اليهود الشرقيين) الذين ملوا الوقوف بلا نتيجة على أبواب السلطة ..

أن الرجل الذى تولى السلطة فى إسرائيل ليس بذلك الشبح الذى تصوره الرسوم الكاريكاتورية العربية ، ولا هو « روبسيير » (رجل الثورة الفرنسية) كما تصوره قصص وأساطير حزب الماباي . فلا شك فى أنه رجل يمينى ومن المؤكد كذلك أنه وطنى وربما كان متصوفا بيد أنه رجل ظل طوال حياته يحترم قوانين الديمقراطية .. وظلت الجملة التالية تلازمه طوال حياته السياسية وهى : « أن الحرية تحكم ايدولوجيتى من البداية الى النهاية » ..

بيجين فى بولندا مسقط رأسه . بيجين مسئول عن البيتار (الحركة القومية للشباب) بيجين قائد منظمة أرجون (حركة المقاومة ضد الانتداب البريطانى فى فلسطين) بيجين رئيسا للمعارضة . بيجين منتصرا يوم السابع عشر من مايو . لم يتغير بيجين فى جميع مراحل حياته اذ صرح قائلا « اننى مناضل من أجل الحرية ، رجل يحاول خدمة شعبه » ..

ومن النادر ، بالفعل ، أن نجد حياة سياسية ، بنفس صدق حياة مناحم بيجين .. واذا ما تتبعنا الخطب التى ألقاها ، لاكتشفنا إحدى مفاتيح شخصيته فى تلك اللازمة التى تتكرر دائما فى تصريحاته : اذ نجد نفس الادارة الجبارة الرامية الى رفع النهضة اليهودية فوق الاحداث وفوق الزمن وفوق الرجال .

غروب دولة حزب العمل

« أن انحذار مجتمع ما يبدأ من اللحظة
التي يتساءل فيها الرجال عما سيحدث ،
بدلاً من التساؤل عما يمكنهم القيام به » .
« ديني دي روجومونت »

من أجل بضع دقائق :

أن انتصار بيجين يمثل في المقام الأول هزيمة حزب العمل . ولقد عجل هذا الحزب نفسه بهزيمته ..

ففي العاشر من ديسمبر سنة ١٩٧٦ اخذ اسحاق رابين رئيس الوزراء وأغلبية وزراء حكومته وموردخاي جور رئيس أركان حرب جيش الدفاع الاسرائيلي ونخبة من كبار الضباط بقطعون بعصبة بالقوة ساحة قاعدة جوية ريفية تقع في مكان ما من الدولة على حد التعبير الذي تستخدمه الرقابة العسكرية الصارمة واخذ اتباع رئيس الوزراء يتفحصون السماء بخليط من الفخر ونفاذ الصبر الممزوج بالقلق .

وسأل اسحاق رابين : « هل سيصلون في الوقت المحدد ؟ » . وأجاب موردخاي جور الذي لا يفصح وجهه العسكري الصارم عن أى تعبير قائلا : « من المقرر أن يصلوا في الثالثة والدقيقة الخامسة والعشرين » .

وفجأة وتحط الأفق شقت ثلاث طائرات من طراز ف ١٥ السحب الكثيفة التي تكاثرت فوق المطار ووقفت الواحدة تلو الأخرى في طرف ممر الهبوط صفا واحدا في نظام تام . وأنبثق من صدور الحاضرين ترحيب شديد تحية لهذا الوصول الذي كان رحلة روتينية عادية بالنسبة للطيارين .

بيد أن هذه الطائرات الثلاث من طراز ف ١٥ والتي حصلت عليها اسرائيل بعد مئات الساعات من المشاورات المضنية مع الولايات المتحدة تعلن عن أسطول حقيقى سيدعم طائرات الميراج التي أصبحت قاذبة والغانتوم والكفير التي يتكون منها الطيران الاسرائيلي الأسطوري الذي بخشاه الجميع وتعد هذه الطائرة مفخرة التقنيات ومعجزة الاليكترونيات .

وقد تحدث ، لفترة انقلابا في توازن الرعب للأسلحة في الشرق الأوسط وهو انقلاب سيكون في هذه المرة لصالح اسرائيل : وبلغ العدد الإجمالى لهذه الطائرات خمسا وعشرين طائرة أولا عن آخر .

وصرح اسحاق رابين أمام ملايين المدعوين وهو يستقبل الطيارين الثلاثة قائلا : « أن اليوم مشهود فقد حصل جيش الدفاع الاسرائيلي ، وخاصة

قواته الجوية على طائرة ذات كيفية غير عادية ، لقد تسلم طيارونا افضل طائرة في الشرق الأوسط » .

أما موردخاي جور فقد قال : « لقد أصبحت دولة اسرائيل وجيش دفاعها بعد حصولهما على طائرات ف ١٥ دولة أخرى وجيشا آخر » .
وفي هذه اللحظة المحددة ، لم يكن في مقدور أحد من المدعويين أن يلقط كل ما لآراء رئيس أركان الجيش من صفة النبوءة الحقّة .

كان هذا اليوم هو يوم الجمعة ، وانتهت الحفلة المتواضعة وانجحت قوافل السيارات ببطء الى مقر مجلس الوزراء . واستعد الجميع لقضاء يوم « سبت لطيف » وقد شعروا بالسعادة لان الولايات المتحدة دعمت مرة أخرى قوة اسرائيل العسكرية . وتجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر بقليل . وكانت عطلة السبت في القدس قد بدأت في الساعة الثالثة وتسعة وخمسين دقيقة بعد الظهر ، وفي تل أبيب تبدأ في الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة . وبحل السبت ، طبقا للتقاليد اليهودية مثل ظهور النجوم بساعة تقريبا . وتلتزم المؤسسات القومية طبقا لاتفاق حكومي ، باحترام قدسية يوم الراحة الأسبوعية وتمنع من « انتهاك حرمة يوم السبت علنا » .

ولم يكن سبب القلق الذي كان يستولى على القادة منذ دقائق يرجع الى وصول الطائرات الثلاث بقدر ما كان يرتبط بحلول الليل المفاجيء . فهل سينتهك رئيس الوزراء وأعضاء وزارته قدسية عطلة يوم السبت علنا ؟ اذ قد تترتب على مثل هذا الانتهاك آثار ونتائج لا يمكن حسابها ، في دولة يحتاج حزب العمل في اطار الائتلاف الحاكم الى المساندة البرلمانية والأحزاب الدينية لكي يضمن أغلبية المقاعد ويحتفظ بالسلطة ، نظرا لان توزيع التنازلات والحلول الوسط التي تحكم العلاقات بين العماليين وأعضاء الأحزاب الدينية يعد هشا للغاية . . وكان كالمان كاهان ، النائب المتواضع ، لحزب « بادلي أجودات اسرائيل » والذي ينتمي الى فريق المتعصبين دينيا ، سيدخل التاريخ رغما عنه فبعد هذه القضية ستنتهي دولة الماباي لتحل محلها دولة الميكود . وقبل انعقاد الحفلة لاستقبال الطائرات كان هذا النائب قد اتصل بوزير الأديان طالبا منه اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة والتأكد من رئيس الوزراء شخصا من أن الاحتفال سينتهي قبل بداية عطلة السبت . وبعد انتهاء الحفلة ظل اسحاق رابين يدافع عن حسن نواياه ونوايا أجهزته واضطر الى اذاعة بيان يعرب فيه عن « أسفه الشديد في حالة ما لو كانت عطلة السبت قد انتهكت » .

ولم تقنع ثورة النائب المتشدد الغيور على التقاليد الدينية هذه
الاعتذارات العلنية :

ففى الرابع عشر من ديسمبر قدم كاهان اقتراحا للبرلمان بسحب
الثقة من الحكومة : وانتصرت الحكومة فى الاقتراع بخمسة وخمسين صوتا
ضد ثمانية وأربعين صوتا . ولكن يا للمفاجأة ! لقد امتنع البرلمانيون الأعضاء
فى حزب « الفدال » (وهو الحزب القومى الوطنى العضو فى الائتلاف،
الحاكم) عن التصويت باستثناء بوست بورج وزير الداخلية الذى صوت
لصالح اسحاق رابين . وقال وزير الداخلية فيما بعد : « عندما رأيت
توفيق طوبى النائب العربى الشيعى وشولاميت ألونى الشهيرة بمناهضتها
للدين يدافعان عن قدسية عطلة السبت ، بدأت أحدد نصيب الدين ونصيب
السياسة فى هذه القضية . انها لقضية سياسية بحتة » .

واخذ الطابع السياسى لهذه القضية فى التزايد يوما بعد يوم . فى التاسع
عشر من ديسمبر وخلال اجتماع مجلس الوزراء أخبر اسحاق رابين وزارته
الأعضاء فى الاحزاب الدينية باستغنائهم : لان امتناعهم عن التصويت
يتنافى تماما مع التضامن الحكومى . وفى مساء اليوم نفسه قدم رابين
استقالته . واستقالت وزارته الى اقرايم كاتزير رئيس الدولة واتفقت
الاحزاب التى تمت مشاوراتها على تحديد يوم السابع عشر من مايو موعدا
لاجراء الانتخابات التشريعية القادمة .

ورأى الجميع فى هذا الاجراء « مناورة ماهرة » من جانب رابين . .
فهو يقطع الطريق ، فى ظل هذه الظروف ، على الجهود التى يبذلها خصمه
فى الحزب الا وهو شيمون بيريز وزير الدفاع الذى ينازعه السلطة علنا حتى
أن حربا حقيقية بين الاخوة قد دارت بين صفوف حزب العمل وامتدت
الى الحكومة وظهرت أنباءها فى جميع الصحف . ومن جهة أخرى اوقف
رابين باجرائه هذا انطلاقة حركة داشن (الحركة الديمقراطية من أجل
التغيير) التى أنشئت حديثا برئاسة الجنرال - عالم الآثار ايجال يادين
والتي تضم مجموعة من التكنوقراطيين الشباب اللامعين ، وأساتذة
الجاسوسية وكبار الضباط ومديرى المؤسسات وكل العناصر التى تمثل
مفخرة الهيكل التكنوقراطى الاسرائيلى . كما يتجنب رابين بذلك أيضا ،
نشر سلسلة من الاجراءات الاقتصادية ، التى قد تفضب الشعب ، والتى
اضطر وزير ماليته الى اتخاذها لمواجهة التضخم السريع ولتلبية المطالب
المتزايدة للعاملين فى القطاع العام والذين ضاعفوا من اضراباتهم الوحشية

والقاسية (مثل الاضراب الذى أعلنته الممرضات) أن تعيين رابينو فيتش المالية يمثل فشلا يتعذر بصورة مطردة كتمانها أو اخفاؤه وأخيرا فاجأت استقالة رابين غير المتوقعة حزب الليكود الذى كان يعيد تنظيم صفوفه تحت اشراف عيزرا وايزمان رئيس أركان حرب السلاح الجوى السابق ، الذى دأب منذ تقاعده على الاضطلاع بدور جمع شمل اليمين الليبرالى والوطنى .

وما لبث تكتيك رابين أن توقف دون أن يحقق أية نتيجة لقد استقال رئيس الوزراء السابق لكى يسحب البساط من تحت أقدام جميع خصومه - فى المعارضة وداخل حزبه على حد سواء - ولكنه سيكون الموظف الأخير فى نصفية السيطرة القديمة للعمال على الحكم « ان ما لم ينجح زلزال حرب الغفران فى أكتوبر سنة ٧٣ » فى تحقيقه ، أحدثته عيوب حكومة رابين - ببريز الى جانب سأم ونفاذ صبر الطبقات الاجتماعية العديدة (صفار البرجوازيين من التجار والصناع والشرقيين والشباب المسرح من الجيش والمهاجرين الجدد من الاتحاد السوفيتى .. الخ) :

لقد اندحر حزب وجهاز توليا أمور الدولة كلها لفترة طويلة لدرجة انهما ارتبطا بها ارتباطا وثيقا وأنهما هما الدولة ولذلك سيكون السقوط بالغ الصعوبة . وكانت الهزات الاولى المتمثلة فى المشاكل قد أثارت قلق كثير من سياسة حزب العمل مثل أسحاق بن احارون ، سكرتير عام نقابة المستأدروت السابقة والذى اتخذ منذ استقالته موقف المعارض الغاضب والعنيد رغم هدوئه ، وكذلك دوفان بن مائير سكرتير عام حزب العمل السابق (أفودا) الذى كتب دراسة اجتماعية ذات دلالة هى « أزمة فى المجتمع الاسرائيلى » نشرت عشية حرب سنة ١٩٧٣ ، أيضا ارينى لوفان الياف مؤلف كتاب أحدث ضجة وهو « دولة الابل » (أحد أسماء اسرائيل فى التوراة) يتناول فيه هذا الرجل السياسى بالتحليل مشكلات اسرائيل المعاصرة ودخولها فى لعبة القوى الكبرى وفى مجال الشرق الأوسط ناقدا الإدارة وجبن ساداتها فى البحث عن السلام . ويعد الياف اليوم أحد محركى نشاط اللجنة السياسية المشتركة الاسرائيلية الفلسطينية التى تحاول اجراء حوار صعب مع الفلسطينيين وأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣ ، التى مهدت لهزيمة سنة ٧٧ ، قد جعلت رجال حزب العمل يشعرون بالخطر وهم الذين كانوا ينعمون ، حتى ذلك الحين ، بالطمأنينة التامة .

مهдал ، مهдал ، مهдал .. منذ الايام الاولى التى تلت هجوم المصريين المفاجيء فى السادس من أكتوبر عندما كانت اسرائيل تحتفل بيوم الغفران

وبيتما فاجأت الحرب الدولة الفارقة في صلواتها وتأملاتها ظهرت هذه الكلمة وسرعان ما انتشرت في جميع وسائل الاعلام ، وعلى أفواه كل الجنود الشبان وأرباب الأسر الذين أرسلوا الى الجبهة والذين فاجأتهم الحرب وهم في سراديبهم وخنادقهم في حالة من عدم الاستعداد بل ومن الاهمال والقفلة تكاد تقارب عدم ادراك حقيقة الأمر من جانب المسؤولين العسكريين والسياسيين .. وأغرقت القوائم الأولى للخسائر في الأرواح والصور الأولى للأسرى الاسرائيليين الذين وقفوا في ذلة أمام آلات التصوير المصرية والسورية ، اسرائيل ، في حالة من التخبط واختلاط الأمور ليس من المؤكد أنها قد شفيت منها حتى اليوم .

ان كلمة مهدال تعنى اهمال . ان الاهمال قائم على جميع المستويات في نظام اسرائيل . ولنبدأ بالمجال العسكري .. ان المصير الذي لقيه خط بارليف الشهير لم يكن افضل من مصير خط ماجينو الذي كان الجميع يشيرون اليه في عام ١٩٣٩ مرددين شعار « لن يمروا » .. ويحمل خط بارليف اسم رئيس أركان حرب الجيش الذي صممه .. وكان جميع الاسرائيليين يقولون دائما انه : « لا يمكن الاستيلاء عليه » . وقد تكلف بناء هذا الخط ملايين الجنيهات وأقيم خلال حرب الاستنزاف ، في الأعوام التي تلت حرب الأيام الستة . ولم يكن خط بارليف سوى سلسلة من مراكز المراقبة الحصينة والقلاع المدفونة حتى منتصفها تحت الأرض والتي تبعد الواحدة عن الأخرى بعشرات من الكيلو مترات . وقد اندفعت قوات الفريق الجسمي قائد القوات المصرية الى هذه الفجوات الحقيقية .. واستولت بسهولة على هذه الحصون كلها الواحدة تلو الأخرى باستثناء واحد فقط هو حصن « بودابست » .. والواقع أنه في يوم الغفران وعلى الرغم من تحذيرات أجهزة المخابرات (التي أسوء تفسيرها) خلت معظم هذه الحصون من الاعداد والكميات العادية من الرجال والمعدات .

وتضاف الى هذه الحالة من التسبب واللامبالاة ، سلسلة من الأخطاء التكتيكية التي ارتكبها بعض كبار الضباط منذ الساعات الأولى لنشوب الحرب . والأسوأ من ذلك أن المعلومات التي أذاعها المتحدث الرسمي باسم الجيش والتي نشرتها وسائل الاعلام الاسرائيلية قد حرفت حقيقة الموقف المؤسف .. ومما لا شك فيه أن أزمة الثقة التي هزت الدولة بعد ذلك قد تولدت في هذه الآونة عندما سمع الجنود المربطون على الجبهة ببانات حكومتهم المتفائلة التي تكذبها وقائع المعركة الشرسة التي يواجهونها .

وقال أكثر من مقاتل اسرائيلي « لقد أصبحنا نكذب مثل العرب » .
وأضاف آخرون « لقد تعلم العرب أن يحاربوا مثلنا وتعلمنا نحن كيف
نكذب مثلهم » وانتشر هذا التعبير وذاع في حصون الجولان وفي خنادق
سيناء .

وسيطل الخبراء يحاولون لفترة طويلة قادمة لكي يحددوا ما اذا
كانت حرب الففران قد أسفرت عن انتصار عسكري أم عن هزيمة سياسية
لاسرائيل ، ولكن لا شك في أن الادارة السياسية القديمة هي التي منيت
بالهزيمة في الحرب .. وعلى « الديناصورات » - كما يطلق عليهم البعض
بطريقة (تفتقر الى الاحترام) - أن يتركوا مقاعد الوزارة ويتخلوا عن
السلطة التي يسكون بزمامها منذ نشأة الدولة وعن المهام المربحة التي تغدق
بسبغها السياسيين القابضين لهم .. وأخذ هذا الهمس الذي خرج من
أرض المعركة يتزايد حتى بات صرخة غضب : « لا يمكن أن يدوم الحال
على ما هو عليه » . وقد كررت مجموعة من جنود الاحتياطى الذين تم
تسريحهم هذه الجملة اثر عودة «موتى الاشيكمينازى (أحد الجنود الذين
نجوا من نقطة مراقبة بودابست ، حيث نزل أفراد هذه المجموعة الى
الشارع وقد امتزجت أراؤهم يمينية كانت أم يسارية وتجمعوا كلهم
سواء كانوا من الحماثم أو الصقور ، ونادى الجميع « بالتغيير » .

وانتشرت حمى المناقشات والمشروعات وثار غليان سياسى لم يسبق
له مثيل واستولى على قدامى الضباط وعلى الجامعيين والكوادر الشابة
التي تريد أن يستخلص الجبل السياسى القديم ، الذى يأفل نجمه ،
دروس حرب أكتوبر ..

وعلا بصورة مطردة صوت الذين أصبحوا لا يترددون في المطالبة باقالة
الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الذى حملته الرأى العام مسؤولية
« اهمال » الحرب بينما براه تقرير لجنة اجرائات « التي شكلت لمحاكمة
المسؤولين عن الحرب . ولم يستطع أريل شارون ، الافريقى ، بطل
الثغرة في الضفة الأخرى لقناة السويس ، والذي يعد المنتصر الحقيقى
الكبير في هذه الحرب وبطل شعب بأكمله ، أن يخفى صراحته واحتقاره
نجاه زملائه الضباط الذين اخفقوا في الحرب . وصراحة القول كان ثمة
شيء ما قد تغير داخل اسرائيل : فلم يعد هناك أشخاص مقدسون لا يمكن
أن يتناولهم أحد بالنقد ولم يفلت أحد من النقد ولا حتى جيش الدفاع
الاسرائيلي المزود بأحدث الاسلحة المطورة .

وفجأة استولى الخوف على حزب العمل : فقد تحدد يوم ٣١ ديسمبر موعدا لاجراء الانتخابات واستعد هذا الحزب طوعا أو كرها لاخلاء المكان لكتلة الليكود التى كانت فى أوج صعودها بفضل شعبية اريل شارون الذى كان اسمه يتصدر احدى القوائم الانتخابية لتلك الكتلة وفى مقر قيادة (المعراخ ، تحالف أحزاب العمل والمابام ، الأكثر يسارية والماركسى) لم يعد أحد يتوهم كثيرا : اذ أن الشعب مستعد للتحويل والتغيير . ومن المؤكد أن حركة « التمرد والرغبة فى التغيير » الجماعية سنعكس على صناديق الاقتراع .

٣١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ : سيعلن التلفزيون بعد لحظات النتائج الأولى للانتخابات التشريعية التى اتفق جميع النقاد على انها قد تكرر فشل وعجز المجموعة التى تتولى السلطة . وأخذت جولدا مائير تدخن السيجارة تلو الأخرى ، وتطلق زفرات تنبئ من أعماق صدرها « لقد بدأت فى تلقي النتائج الأولى للمجالس البلدية (المقترنة بالانتخابات التشريعية) لقد انتزعت عمودية تل أبيب من أيدي « بيهوشوا رابينوفيتش أحد القادة القدامى للماباي لكى تستقر فى أيدي شلومولاهات ، مرشح ليكود ، والجنرال الاحتياطي .

وبعد انقضاء بضعة ساعات أمكن للجدة الشجاعة أن تتنفس الصعداء : فقد انتصرت مرة أخرى على عدوها اللدود مناحم بيجين اذ حصل الليكود على ٣٥ مقعدا مقابل ٥١ مقعدا حصل عليها تألف المعراخ . . وعلى الرغم من استيائهم ، شعر الناخبون الاسرائيليون المحافظون بالخوف من المضى فى المغامرة وخوض المجهول . ومرة أخرى وبعد حصولها على ثقة الكنيست شغلت جولدا مائير الوزارة الجديدة برجال حزبها وحزب الائتلاف وبقي ديان وزيراً للدفاع وكوفىء رابينوفيتش بعد فشله فى انتخابات المجالس البلدية لتل أبيب ، وعين وزيراً للاسكان . . وحصل اسحاق رابين لدى عودته من واشنطن على أول منصب وزارى له حيث أصبح وزيراً للعمل .

ومع ذلك فقد حدث تحول معين ومحسوس من جانب هيئة الناخبين نفذ فقد المعراخ ستة مقاعد من تلك التى كان فاز بها فى انتخابات عام ١٩٦٩ بينما نجح الليكود فى الحصول على ١٣ مقعدا جديدا ، وهكذا بدا

في عام ١٩٧٣ ما حدث فيما بعد في عام ١٩٧٧ . فقد لقن حزب العمل درساً قاسياً من هيئة الناخبين التي وقفت عند حافة التغيير السياسي الشامل .

وعلى مدى أربعة أعوام تولت الحكومة التي خلفت حكومة جولدا مائير (التي استمرت في الحكم ثلاثة أشهر فقط) والتي رأسها اسحاق رابين مهمة التبديد السريع لكمية الثقة التي بقيت لدى الشعب . . ذلك الشعب الذي هزته أزمة عميقة زلزلت أسس مجتمعه التي لم تمس حتى الآن بما في ذلك معتقداته ورؤيته للعالم .

مجتمع في أزمة

انتقل المجتمع الاسرائيلي فجأة في عام ١٩٧٣ من جو الكآبة الذي سادته اعتبارا من عام ١٩٧٠ الى العنف شبه العصبي والى نوع من الاستسلام المرضى للهلل الذي يعد صفة مميزة لليهود والذي اختلط بتقلب الاطوار الذي يعد سمة شرقية بحثة .. « ان هواء القدس ينقى الروح » هكذا يقول حكماء التلمود .. اذ أن مناخ اسرائيل العام يؤثر على التفكير أيضا ، ويشحذ الاحاسيس كالخمر ؛ وانتقل شعب بأكمله في ليلة واحدة من نشوة الانتصار الى التشبع بالندم ويعكس ذلك الأمر أيضا الروح الجماعية لاسرائيل التي اعتادت نداول المستحيلات الجدلية ..

ومحاولة التوفيق بين الأضداد وتنسيق التناقضات الفلسفية بصورة يكاد لا يصدقها العقل حقا أن اسرائيل تمثل هذا المزيج المتفجر من التفاؤل المكابر الذي يتطلع الى الخلاص وهو في افران النازية رازحا تحت نير ألوان التهديب والاضطهاد ..

ومن الذي يستطيع الشك في أن الهواء الطبيعي الذي تتنفسه اسرائيل هو نوع من الهيستريا المذابة في صرخات لا نهاية لها تنتقل من اللوم الدائم الى شك كبير استقر في أكثر التأكيدات جزما ؟ هذا هو السؤال الذي يلائم اسرائيل بما لا يقل عن ملائمة الأجوبة التي تحاول تقديمها بشأن بقائها .

ومن الأفضل لكي نفهم اسرائيل من الداخل ، أن نحللها في حركتها وليس في سكونها ، في المناقشات التي تجري داخل السيارات وليس في المقالات الافتتاحية التي تنشرها التايمز البريطانية . ويا لها من سخيرة هائلة وتشاؤم كامل يحدث اثره أولا على الذات ثم على العالم . ودخل عهد الشك التاريخ منذ ظهور ابراهيم الذي حطم أصنام والده . ولم تعرف اسرائيل عقدة أوديب .

وعلينا أن نتذكر دائما أن التوتر الأقصى بين الامل والخوف هو الذي يكون النسيج الحسى والروحي لاسرائيل .

فهل أدركنا ذلك ؟ لقد أدركنا بوضوح هذا الجنون بالوطنية الذي يمثل مرض إسرائيل الجماعى والذي يشل فجأة كلا عضلاتها ويوتر أعصابها ويجعلها تنبش جراحها بقوة لا مثيل لها وتمارس ذكاء أعمى ، لا يظهره سوى منتهى اليأس ، ويذهب الى حد انكار الذات والى « كره اليهودى لذاته » الذى وصفه الفيلسوف الالمانى ليستنج . بأنه شعب لا يستطيع « الرضاء النفسى » - أو نادرا ما يستطيعه - ولا يرضى عن نفسه الا بصعوبة بالغة حيث تلتصق به مشكلة شخصية . ان إسرائيل هى شعب يناضل ضد نفسه قبل أن يناضل ضد الآخرين .

وهناك على أية حال فترة من التاريخ المعاصر لإسرائيل الحديثة أوشك فيها القلق الدائم والتساؤل عن الذات المعبدة ، على التحول الى شعور « تافه » هو الكبرياء ، بسبب تحقيق الانتصارات العسكرية . كان ذلك فى عام ١٩٦٧ بعد أن هزم جيش الدفاع الاسرائيلى القوات العربية المشتركة وبعد ان فرضت قواته سلطان إسرائيل على الشعوب الدليلة . وأخذ كبار الجنرالات ، عابرة أرض المعركة الذين يفتقرون الى اللباقة فى الحديث أمام الصحافة العالمية أخذوا يتحدثون ، وهم يحملون الكؤوس بين أيديهم ويرتدون زيا عسكريا أنيقا ، عن امبراطورية إسرائيل والقدرة الاسرائيلية والحملة الجديدة لكى يصارحوا دمشق والقاهرة والحكام العرب بحقيقة أمرهم ولكى يحققوا فى غمرة الأحداث الديمقراطية والأمن الاجتماعى للجماهير العربية التى ستعترف لإسرائيل بهذا الجميل . . ولم يتبقى ثمة أثر للنزعة العسكرية ما دام المدنيون عسكريين . وكل العسكريين يصبحون مدنيين منذ بلوغهم سن الخامسة والأربعين .

وفد تولدت روح من البلادة اثر حرب الأيام الستة متمثلة فى تناسف الأناشيد العسكرية وظهور الأغاني الهزيلة ، كما يحدث دائما بعد عروض الجيش العسكرية ، واصدار البومات الصور التذكارية التى يتخاطفها السياح ، واقامة الحفلات التى يظهر فيها كبار الضباط الذين يشيرون اعجاب سيدات الطبقة البورجوازية القليلة العدد فى تل أبيب . وانتشر هؤلاء الجنود فى كل مكان بعد أن تملقهم شعب بأكمله وراحوا يتحدثون كثيرا وهم الذين كان صمتهم واصدارهم للاوامر المختصرة والفعالة يعد بمثابة الأساطير .

ثم ظهرت المثالب الاولى لهذا الوضع الجديد فقد عاد هذا الجنرال أو ذاك من ايطاليا بعد مهمة رسمية وقد شيد داخل منزله حمامات من

المرمر الايطالى فما هو عذره ؟ انه يعانى من البواسير . وشيد آخر فيلا فاخرة بفضل الايدى العاملة التى التقطها من قاعدته العسكرية وبأدوات سرقتها من الترسانات . وذهب به مرض التعاطف الى حد تغطية مقابض الأبواب بالذهب . ولا شك فى أن هذه الظاهرة تعد هامشية ولكنها كانت تكشف عن مدى الأخطار التى تحوم بإسرائيل : ان عام ١٩٦٧ يمثل حقا صعدا فى تاريخ هذه الدولة .

فالواقع أنه حتى ذلك الوقت كانت الصورة العزيزة على قلب هذا المجتمع الصغير المتطوع ، المتضامن الذى يشبه قرية كبيرة تفوق مساحتها مساحة قطاعين فرنسيين ونصف ، هى صورة مجتمع الأخوة المتكشف ، الرائد ، المتواضع فى طلباته وحيث يتساوى نصيب الحلم مع نصيب الواقع . وكان بن جوريون الذى اعتزل فى أواخر حياته فى صحراء النقب المهجورة فى مستوطنة سدى بوكر المنعزلة التى أنشأها الشباب المجنون المولع بالمغامرات والخدمة الاجتماعية ، يمثل أكثر من صورة لقد كان نموذجا مثاليا لا يمكن لأحد أن يفكر فى الاستهزاء به رغم ندرة الدين وجدوا فى أنفسهم الجراة الكافية لكى يحذوا حذوه .

وفى خلال عشرة أعوام حلت الروح العملية - التى لم تكن فعالة دائما - محل الايديولوجية القديمة الاشتراكية المثالية ، كما سادت المادية السافرة مع نزعة اقليمية تبعث على اليأس : واستقرت بالفعل الميول الشرقية التى طالما خشيها مؤسسو الدولة . وأنشئت المطاعم الفاخرة المزدهمة دائما ، وانتشرت أزياء بيركاردان وركب الاسرائيليون السيارات الفولفو والمرسيدس وقاموا برحلات للخارج ، محققين بذلك حلم الطبقة البورجوازية الصغيرة المتطلعة الى الرفاهية فى جميع المجتمعات الغربية .

وترتب على ثراء طبقة اجتماعية محدودة المعالم هى طبقة مقاولى الأشغال العامة ورجال الصناعة الذين يعملون لحساب وزارة الدفاع الوطنى ومستوردي المواد المستهلكة ، ان القى بإسرائيل بين عشية وضحاها فى مجتمع السيولة . وقد أعطى المارك الألمانى المتولد عن إصلاحات الحرب (التى عارضها بجين بشدة) مذاقا مسبقا لهذا التحول الذى استكملة بصورة نهائية تدفق الدولارات التى قدمتها المساعدات الامريكية والدعم الذى تبرع به يهود الشتات غداة يونيو سنة ١٩٦٧ . وأثناء حرب الاستنزاف فى السبعينات وعندما أقام الجنرال بارليف خط الدفاع الذى يحمل اسمه على طول قناة السويس ، كان يكفى أن يمتلك المرء بولدوزرا

لكى يصبح عملاقا فى مجال التشييد والبناء : وفى سنة ١٩٧٠ بلغت قيمة تأجير هذا الجرار ليوم واحد لوحدة الجيش المجاورة حوالى ثلاثة آلاف ليرة .

وطبقا لهذه الدفعة أمكن لهيرمان كاهن Hermann Kahn الاسناد فى معهد هدسون Hudson أن يتوقع ان اسرائيل ستصبح فى سنة ٢٠٠٠ سويسرا الشرق الأوسط بحق . . وفى انتظار تحقيق ذلك كانت النفقات العسكرية تستحوذ على ما يقرب من ربح اجمالى الناتج القومى وأُنقلت الديون كاهل الدولة التى بلغت مديونية الفرد الواحد فيها لمختلف منظمات القروض الدولية رقما قياسيا هو ستمائة دولار تقريبا هذا فضلا عن الديون الشخصية . اذ أن الاسرائيلى المتوسط يعيش ، فى غفلة من الحكومة ، بأعلى من مستوى دخله ويضطر فى كثير من الاحيان الى أن يقوم بعمليتين فى آن واحد بل والى العمل سرا أيضا ، ويعيش مثقلا بالديون طوال حياته مما يؤثر على عمله ويسبب له تأنيب الضمير أيضا . هكذا كان حال هذا الاسرائيلى المهاجر الى الولايات المتحدة الذى أفضى يوما لمراسل صحيفة معاريف بقوله : لقد تركت البلاد لأنى لم أعد أطيق الكذب ، ولم أكن راغب فى الانفاق أكثر مما أكسب ولا فى أن أعيش خائفا من رؤسائى فى العملين اللذين لا أعتنى بأى منهما من حيث الكيفية حيث تضطرنى الى ذلك ظروف حياتى » .

سوق سوداء للعملات الحرة ، تزوير الاقارات الضريبية للاذخار فى الخارج (وتبلغ قيمة النقود المهربة للخارج بثلاثة مليارات من الدولارات) كأن جميع الاسرائيليين يقومون بهذه العمليات الخاصة متحايلين ، فى سبيل ذلك على القانون بطريقة ما . بيد أن ذلك يثقل كثيرا على مجتمع أراد أن يكون بعيدا ، على الأقل فى بداية عهده عن المظاهر المالية ، وعدوا للزيف ، ونقيا الى حد الزهد ، ومحتقرا للمادية . . حتى اذا كان الجميع - تقريبا - يخدعون السلطات ويفشون ضمائرهم ، فان عقدة الذنب تكون أكثر ثقلا فى حملها : وهكذا كان أحد قرارات وزير المالية فى حكومة بيجين هو تبويض الحال الأسود الذى ينساب داخل اسرائيل وخارجها وعلاوة على مزاياه المالية فيما يتعلق بمنطق الاقتصاد الحر ، فان لهذا الاجراء تأثيرا نفسيا : اذ أن الاسرائيليين الذين يعتبرون انفسهم مواطنين غير صالحين بمقياس الالتزام الاجتماعى الصارم ، والذين قاموا بتهرب أموالهم ، يمكنهم ، حماية لأموالهم التى امتصها التضخم الرهيب - تقريبا ٤٠٪ - فضلا عن الانخفاض المستمر لقيمة العملة الوطنية ، أن يعيدوا أموالهم

فإننا على الأقل هو ، ما تأمله وزارة المالية) دون أن يتعرضوا لاي لوم عام . . وعلاوة على ذلك ، سيحصلون ، مكافأة لهم على ما يشبه شهادة بوطيتهم .

والى جانب ثراء هذه الشريحة الاجتماعية ، كان المواطن المتوسط يعانى من الفقر خاصة فى نهاية كل شهر . ويثرى البعض بصورة متزايدة بينما البعض الآخر يعانى من تناقص الموارد اللازمة لمعيشتهم . . ولدى نشأة الدولة كانت الفوارق فى المرتبات لا تتجاوز ١ : ٣ بينما وصلت اليوم الى ١ : ١٢ . وعندما يعلن المهندسون الاضراب يكون ذلك لانهم يعترضون على تباين المرتبات بينهم وبين زملائهم فى قطاعات أخرى . وعندما أوقف موظفوا شركة العال رحلات الطيران كان ذلك لاعتراضهم على المساس بعملاتهم الحرة من الدولارات والاسترليني التى يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من مرتباتهم بينما يشير تقرير حكومى الى أنه ما من طيار تابع لشركة العال قد قام خلال الخمسة أعوام الأخيرة بتبديل أى مبلغ من العملات الحرة فى البنوك الاسرائيلية . بيد ان غلاء المعيشة الدائم والضرائب المفرطة سمس بصفة خاصة الطبقات الأكثر فقرا . .

وهى تمس فى المقام الأول قطاعا من الشعب الاسرائيلى يطلق عليه استحياء اسم « الطبقات غير المحظية » . . وغالبا ما تتكون هذه الطبقات من عائلات كثيرة لا تستطيع أن تعبر حاجز الفقر وتعيش فى ظل ظروف لا تطاق من التكديس . . ويقوم أطفالهم بارتكاب الأثام وممارسة الدعارة واستهلاك المخدرات والاتجار فيها .

وتنحدث بعض الأرقام عن نفسها . . وينطبق ذلك على تقديرات « اسرائيل كاتز » مدير التأمينات الاجتماعية السابق (والذى يشغل اليوم منصب وزير الشئون الاجتماعية) الذى كتب تقريرا - يحمل اليوم اسمه - يتعلق بالفقر فى اسرائيل وبالشباب الذى يواجه الخطر : وإذا كان متوسط الدخل القومى فى عام ١٩٧٥ قد بلغ ٣١٤٠٠ ليرة ، فان دخل العائلات التى يرجع أصلها الى الدول العربية بلغ ٢٧٤٠٠ (بينما يزيد عدد أفرادها عن عدد أفراد العائلات الأخرى) وتجاوزت العائلات التى يرجع أصلها الى أوروبا وأفريقيا هذه النسبة المتوسطة وبلغ دخلها ما بين ٣٣٤٠٠ و ٣٩٠٠٠ ليرة سنويا . ان اجراءات الاصلاح الاقتصادى التى اتخذها « سيمحا ايرلخ » والاتجاه القائم بصورة متمدة على التحرير الرأسمالى للاقتصاد - وفقا للتوصيات الملحة للأب الأكبر للرأسمالية

الجديدة وهو « ميلتون فريدمان » الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد لا بد أن يسفرا عن تفاهم الموقف .

ومنذ تولى حزب الليكود السلطة ارتفعت أسعار المنتجات الاستهلاكية الأساسية مرتين بما يتراوح ما بين ٢٠ ، ٢٥ ٪ مما يشكل كاهل ميزانية العائلات الأكثر فقرا . .

وفي مجال آخر لا شك في أنه سيحدد وجه المجتمع الاسرائيلي في المستقبل وهو مجال التعليم ، ترتب على تسعة وعشرين عاما قضائها حزب العمل في السلطة ، والأضرار ، لفترة طويلة قادمة بغرض تقدم العائلات السفارديم (من أصل شرقي) .

ويمثل أبناء هذا القطاع من السكان (الذي يبلغ عدد أفراد ٦٥ ٪ من إجمالي تعداد الشعب) ٦٠ ٪ من تلاميذ مرحلة التعليم الابتدائي و ١٢ ٪ من التعليم الثانوي (بالمصاريف على الرغم من بعض الإعانات العائلية) و ٨ ٪ من التعليم الجامعي و ٤ ٪ من الحاصلين على شهادات من الجامعات الإسرائيلية .

وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء اليهود ، الذين يرجع أصلهم الى دول إسلامية ، ليسوا ممثلين بصورة كافية في البرلمان (٢٠ نائبا من ١٢٠) وفي الحكومة (وزيران ونائب وزير) وفي الادارة العليا وفي الجيش (جنرال واحد من أصل يمني وفي المجال الدبلوماسي) لقد كان نصيبهم التجاهل والاستغلال : فهم الذين يكونون أغلبية الأيدي العاملة الوطنية في قطاعات العمل وفي الطرق يقومون بتجفيف المستنقعات ، وتشجير الهضاب الجرداء ولكنهم دائما منسيين ساعة اعداد « بيانات الانتصار » التي تصدرها « المؤسسة » بصفة دورية . وفي أوروبا يمكن أن يطلق عليهم اسم « العالم الرابع » . وهنا يسمونهم « اسرائيل الثانية » .

اسرائيل الثانية : انه تعبير يطلق العنان للتفكير في مجتمع كان يريد لنفسه أن يكون مجتمعا متساويا ولكن نجد فيه طبقا لعنوان قصة اثارث ضجة كبرى ان البعض متساوون والبعض الآخر اكثر تساويا أيضا » .

ويقيم هؤلاء اليهود في المدن النائية أو التي تقع على الحدود في مواجهة هجمات الفلسطينيين (مثل كيرات شمونية ، معلوت ، بيت شبان) وفي الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى (موسارا وكاتانون في القدس ووادي صليب في حيفا وشوخناط هاتيكوا في تل أبيب) ومعناها مدينة الإبل) . . ان

« إسرائيل الثانية » هذه لا تجد نفسها في القيم التي نودى بها والتي حظ العماليون من قدرها .. ويرى أفراد إسرائيل الثانية أن الحديث عن الاشتراكية الذي يفتقر الى لون محدد لا يفيد الا للبقاء على امتيازات نخبة أسست نفسها بنفسها . ولا شك ان إسرائيل الثانية تتعرف على نفسها بدرجة أكبر ، فيما وراء أى تحليل سياسى « منطقى » ، في صورة اليهودى التقليدى الذى يمثلته مناحم بيجين ، « الرجل القوى » الذى « يعرف كيف يتحدث الى العرب » .. وفي الحقيقة لا يهم هؤلاء اليهود الشرقيين كثيرا أن يكون جميع الوزراء من الرأسماليين الفعليين سواء اكانوا من كبار أو صغار رجال الصناعة الذين لا يعرفون العقد : ان هؤلاء على الأقل لديهم الجرأة الكافية للاعتراف بلونهم الحقيقى ولا يمارسون أعمال التمييز من وراء الستار الباهت لاشتراكية اقتصرت فائدها على الإبقاء على من يلوكون اسمها حيث هم من السلطة .. « وذات يوم من أيام شهر ابريل ١٩٧١ أطلقت مجموعة من الجانحين الشبان والعاطلين ، الذين يعيشون بلا عمل في ضواحي الفقر ، على نفسها اسم « الفهود السوداء » وألقت بذلك في وجه المجتمع الاسرائيلى تحديا اجتاحت هذا المجتمع الى وقت طويل حتى تسنى له أن يفيق منه .

ومما لا شك فيه أنه لأول مرة منذ اضطرابات وادى صليب في سنة ١٩٥٩ اكتشفت إسرائيل مدى صعوبة سد «الهوة الاجتماعية والطائفية» . ومنذ ذلك الحين فصاعدا يرفض الشباب الشرقي أن يضحي به على مذبح أمن البلاد ، تلك الحججة الأزلية التي تساق لرفض المطالب الزهيدة التي يتقدم بها هذا الشباب .

فماذا يريدون ؟ مساحة أكبر في شققهم التي يرثي لحالها - تعيش ... ر.ع عائلة شرقية في منازل تضيق بعدد سكانها - وتعلما يتلاءم مع تراثهم الثقافى ولا يصطبغ بهذه الصيغة الأوروبية - المركزية في هذه الدولة التي تنتمى الى منطقة الشرق الأوسط ، ونظما أفضل للتأمينات الاجتماعية والإعانات العائلية .. وفي كثير من الأحيان تخنق هذه الأصوات الشابة تحت وطأة المزايدات السياسية أو بالأحرى عن طريق شراء سكوتهم . بيد أن هذه الأصوات الشابة الثائرة لم توشك بعد على أن تخمد .. لقد انضم بعضهم الى المعارضة الشيوعية مثل النائب الشاب « شارلى بيتون » الذى ذاق مرارة السجن ، بينما انضم الآخرون الى الأحزاب المعتدلة مثل حزب داش أو الى اليسار مثل حزب شيلى . بيد ان الجميع يريدون أن يكون لهم في النهاية صوت مسموع ، أى أن يشتركوا في الحكم . وربما يدل

القرار الذي اتخذ مؤخرا بإنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية التي عهد بها الى « اسرائيل كاتز » (الذي يحظى باحترام جميع ممثلى اليهود الشرقيين) على ان الحكومة الاسرائيلية الجديدة اتجهت ، على الرغم من المنطق الاقتصادى الذى يحكمها نحو العمل على تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية .

ذلك انه حان وقت العمل بسرعة .. وخاصة فيما يتعلق بالشباب .. ان معظم الجانحين وممارسى الدعارة وتجار المخدرات (من جميع الأنواع) ينتمون الى الطبقات الفقيرة بينما يرتكب الجرائم الحقيقية أفراد الطبقات المتميزة والدينية أيضا فى بعض الأحيان . ولا يتأثر أحد على الإطلاق من ان ٩٠٪ من نزلاء السجون يتكونون من يهود من أصل شرقى . ولكن عندما يتعاطى بعض أبناء طبقة الشباب الثرى فى اسرائيل الجميلة (الوجه الآخر لها) المخدرات فى مدارس رامات هاشارون وفى الأحياء الأنيقة من تل أبيب أو القدس يسارع الجميع بالإشارة الى أن هذه المخالفة تمثل أحد ظواهر المجتمع الحديث وتفيد دراسة اجراها البروفيسر باراك المستشار القضائى للحكومة بأن حوالى مائة ألف شخص يتعاطون المخدرات بصورة منتظمة الى حد ما .. ومن بين هؤلاء الأشخاص كثير من الشبان ، مثلما يحدث فى العالم كله .. ومع ذلك ينظر الى هذا الأمر فى اسرائيل على اعتبار أنه كارثة حقيقية ، اذ أن مستقبل الدولة ووجودها يرتكزان أساسا على الشباب الذى قام الحلم الاسرائيلى من أجله واستنادا اليه .. ان هذا الشباب الممثل فى الصابرا يعد فخرا لأهله الذين يقومون بحمايته وتدليله وجعله مسيطرا لا يواجه العقبات . انهم يريدون طرد أشباح المنفى والعائلة اليهودية التقليدية التى تعانى من الاختناق والجائرة الى حد ما ..

وماذا لو كف هذا الشباب فجأة عن الإيمان بالملحمة الصهيونية ؟

سينهار المشروع اذن . لقد اتهموا هذا الشباب بجميع العيوب : بالمادية والانانية والافتقار الى المثالية بينما قد يقتصر مطلبه الوحيد على أن يعيش حياة طبيعية كالتى يعيشها الناس فى ليفربول وتولوز أو بوستون وينظر هذا الشباب بعين متشككة وساخرة الى المثاليات الاجتماعية التى أرساها الكبار ثم خانوها ..

وقد بعث طلبة المدارس بخطاب الى جولدا مائير فى ابريل سنة ١٩٧١ بعد ان رفضت السماح للدكتور ناحوم جولدمان بمقابلة عبد الناصر جاء

فيه . « عن طلبه السنة النهائية ، نعتبر عشية دخولنا الجيش ، عن انتقاداتنا للسياسة التي تنتهجها الحكومة فيما يتعلق بمقابلة جولدمان لناصر . وكنا نعتقد حتى هذا اليوم اننا سوف نخدم البلاد ونقاتل طوال ثلاثة أعوام لأنه ليس أمامنا أى اختيار . ولكن وبعد أن أثرت هذه المسألة ، تبين لنا أنه لو توفر مثل هذا الاختيار ، حتى وإن كان بسيطاً ، فإننا نتجاهله . . ان سياسة الحكومة تبدد فرص السلام ونحن نوجه لكم نداء نناشدكم فيه استغلال أى فرصة تسنح لاقرار السلام » . وقد أحدث هذا الخطاب دوى القنبلة داخل نظام الحكم . اذ تحدث البعض عن نزعة الانهزامية والعدمية دون مراعاة القلق الذى ينتاب هذا الشباب اليأس . وأثارت جماعات اليسار (ماتسبين وسياح) ومسرحة النقد السياسى اللاذع (مثل مسرحية « ملكة الحمام » ، تضحية اسحاق ، وهى المسرحية التى تعرض أسطورة قديمة من التوراة تتعلق بالتضحية بحياة الشباب الذى كان الكهول الانانيون يلقون بهم فى الهلاك باسم المثاليات القاسية وغير الواقعية) اثار ذلك غضب الكبار الذين وجدوا ان هذا الشباب المجادل والغاضب لم يعد يشبه فى شئ تلك اللبنات الصغيرة التى رعوها بكل العناية . ولم ينته النضال من أجل انقاذ هذا الشباب من مرض « الشك » واللاخلفية بل انه يمثل هدف زيتولون هامر وزير التعليم الجديد المتدين والذى لا يخفى ميوله للنشاط الروحاني لجماعة الجوش ايمونيم .

وظهر خوف جديد أكثر الحاحا يتمثل فى مشكلة الهجرة .

ففى عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ عبر ٢١٠ مهاجر ابواب الدخول الى الأرض المقدسة (منهم ٧٥٠٠ من الاتحاد السوفيتى و ٢٢٠٠ من الأرجنتين و ١٥٠٠ تقريباً من فرنسا) بيد أن ٨٠٠٠ من بينهم جاءوا نقضاء فترة مؤقتة فقط . وفى نفس الوقت خرج ١٥٠٠٠ شخص مهاجرين من البلاد . ومنذ عام ١٩٤٨ ترك ما يقرب من ٢٣٠٠٠ شخص (من بينهم ١٤٠٠٠ مهاجر) اسرائيل بينما لم يكن قد اندمج فيها سوى ما يزيد على المليون يهودى منذ انشاء الدولة : وانتقصت الهجرة ٩٣٪ من هذا المجموع .

ولا يمكن أن تحقق دولة اسرائيل ذاتها من خلال روح الصهيونية الا بالهجرة لانها انشئت لاستقبال أكبر عدد ممكن من اليهود . وترمز كلمة « العليا » أى الصعود الى البلاد صعود بمعنى الارتفاع الروحى ، والتحول الكامل للفرد اليهودى الذى غسل نفسه وتقى روحه من بلاد المنفى . اما

انرحيل في صورة يهود الشتات أى النزول باللغة العبرية فانه يهدم مرة واحدة التبريد الايديولوجى والأخلاقى للمشروع الصهيونى ، انها خيانة يعيشها المهاجر والمحيطون به وهم يشعرون بالآلم والعار .

« مجموعة من البؤساء المساكين » كذلك وصف اسحاق رايبين ، رئيس الوزراء الاسرائيلى السابق ، أولئك المهاجرين الى الخارج . ولكن هذا الوصف فقد فاعليته لدى الراى العام الذى لم يعد يكتفى بالشعارات الجوفاء . ويفضل الجميع اليوم دراسة الوسائل التى قد تعيد الأبناء المفقودين فى الخارج والذين يتمسكون بشدة فى غالبية الأمر بوطنيتهم ، بدلا من معاملتهم كمذنبين . هذا اذا لم يكن من يريدون اعادتهم يفكرون فى دخيلة أنفسهم فى أن يفعلوا بالمثل وذلك لأسباب شتى : الحصول على المال أو من أجل الدراسة وخاصة من أجل استنشاق الهواء الحر والاستمتاع بالمساحات الواسعة لان أطول رحلة فى اسرائيل لا تتعدى مسافتها أربعة الاف كيلو متر وتنتهى عند حدود لا يمكن عبورها . أن المرء يختنق فى هذا المجتمع حيث يندر التألف لكثرة ما يقضى به التضامن ، ولتوالى بيانات الاذاعة وتسلط اعلانات الوفيات الكثيرة التى تنشر فى الصحف أو تعلق على لوحات المجالس البلدية . وثمة اتجاه انسانى يتغلب على كل ما عدا ذلك . وقد اندهش أرييل شارون بطل حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ الذى أوفد الى الولايات المتحدة لاقتناع بعض المهاجرين بالعودة الى اسرائيل حينما التقى بالعديد ممن كانوا يخدمون تحت قيادته كضباط ويبلغ عدد المهاجرين فى نيويورك ١٥.٠٠٠ اسرائيلى يعيش أغلبهم على الكفاف ونادرا ما ينجح أحد (مثل رئاسة لوريه أشهر رسام كاريكاتورى فى الصحافة الأمريكية) . ومن بين كل خمسة من سائقى سيارات الاجرة ثمة سائق يتحدث اللغة العبرية . وفى باريس أيضا وفى بعض المقاهى مثل مقهى السيلكت فى منطقة مونبارناس أو فى بعض المحال التجارية الصغيرة ، يزداد عدد المتحدثين باللغة العبرية التى تشوبها نبرة حنين .

ومن قبل وفى عام ١٩٦٦ ، أى فى عهد الانكماش الاقتصادى انتشرت نكتة مرة فى صالات التحرير وداخل الصالونات تقول « يرجى من آخر من يغادر مطار اللد أن يطفى الانوار ويضع المفاتيح تحت العتبة » . وبعد حرب عيد الففران ازدادت حركة الهجرة ولم تكن هذه المرة لأسباب اقتصادية ولكنها كانت ترجع اساسا الى الضغوط النفسية التى تعرض لها العديد من المناضلين الذين اكتشفوا - مثلما حدث فى عام ١٩٤٨ -

أن الحرب لا تكون بالضرورة سريعة ولا نظيفة . وأن ما كان يدعم الإرادة الفولاذية لمؤسس الدولة هو نفسه الذى جعل أبناءهم بتراخون . .

أن الحرب مستمرة والسلام مرهون ويتزايد ابتعادا يوما بعد يوم . وبين هذين الشبحين توجد الحياة - أو ما تبقى فيها - بجرحها وآلامها وأشباحها بحيث لم تعد تشبه في شيء الحياة الآمنة في العواصم الغربية . وهذا ما يفسر بصورة كبيرة تفاقم الألم الذى لا بد من إزالته والعنف الذى ينفجر في الحياة اليومية في صورة رياح شديدة ، والعصبية التى تنتاب بلدا تعيش في حالة من الوهن العصبى الذى ساد وانتشر على الصعيد الوطنى كله . .

وكيف يمكننا أن ننسى أن هذه الدولة خاضت أربع حروب وأن وجودها قد تعرض للخطر ليس فقط من جانب جيرانها العرب ولكن أيضا من جانب عدد كبير من الدول وكيف نتجاهل أن ممارسى الضغوط الذين تتفاوض معهم إسرائيل يقيمون تحركهم استنادا الى ميثاق قومى يلزم الفلسطينيين الأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينيين تصفية دولة إسرائيل وإقامة دولة علمانية وديمقراطية لا يجهل أحد طبيعتها إذا ما تذكر وضع من يتمتع بالحماية ، طبقا للحق الدينى وهو الوضع الذى يحدده الإسلام للأقلية اليهودية والمسيحية والقبطية وغير ذلك والذى تستند إليه أساسا حتى الآن الحياة والنضال السياسى في العالم العربى ؟

وكيف تصدق أيضا التعايش السلمى بين اليهود والعرب عندما يشاهد رجل الشارع في إسرائيل على شاشات التليفزيون المذابح التى حدثت في أيلول الأسود في عمان بين الاردنيين والفلسطينيين والتى عرضتها التليفزيونات العربية ، أو فيما بعد المذابح التى دارت بين الفلسطينيين والمسيحيين المارونيين في بيروت ؟

أن التشدد ورفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية (الذى رفضته الكنيسة بعد انتخاب بيجين بأغلبية الأحزاب باستثناء الأحزاب الشيوعية وامتناع بعض نواب اليسار عن التصويت) والتمسك بالأراضى وتسلط فكرة الأمن ، كلن له ما يبرره قبل زيارة الرئيس أنور السادات الى القدس في التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، في الخوف من العالم العربى « الذى يرفض الاعتراف بإسرائيل ويكن لها العداء وهو الذى يحيط بها » وقد صرح ماكس نوردو في عام ١٨٩٧ بينما كان يرسى أسس الدولة اليهودية المقبلة مع هيرتزل بقوله : « ولكن هناك عرب فلسطين وهذا ما لم

أكن أعرفه » . والآن ، ولت هذه المرحلة وانتهت ويدرك أغلبية اليهود في الوقت الراهن ضرورة أن تندمج بلادهم في مساحة الشرق الأوسط اذا ما تخطى العرب عن ادعائهم القائل بأنهم أصحاب المساحة كلها .

ومن جهة أخرى يمكن أن نخشى من أن تثير زيادة النزعة الاستعمارية ، التي ترعرعت في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧ سواء أثناء حكم حزب العمل أو حزب بيجين شكوك العرب فيما تدعيه اسرائيل من رغبتها في اقرار السلام .

وفي الحقيقة فإن هذا الصراع يعد تافها ومثقلا بالمتناقضات التي يتعذر التوفيق فيها بينها لأن هناك شعبين يدافعان عن حقين مطلقين ومتناقضين ولأن الشعبين قد جعلنا من كلمة شاريم وإيزمان ، وأول رئيس لدولة اسرائيل « ان الذكرى حق » شعارا لكل منهما أنهما شعبان يعيشان على ذكرى موتاهم أكثر مما يعيشان لتحقيق آمال أطفالهما .

بيد أنه في البداية - حتى لو أسىء تقدير مدى المشكلة العربية - تمثل حلم مؤسس الصهيونية في انشاء مجتمع مثالي عادل ومتفتح مع بعض الاتجاهات الابوية اللا واعية .

وهل بعد ذلك Montenegro آخر ؟ ابدا هكذا صرخ ارتور روبين مدير الوكالة اليهودية في فلسطين في العشرينات « نعم أن دولة اسرائيل ستعيد الفخر لكل يهودى وستحقق له الفائدة الاجتماعية التي كان يفترق اليها في مجتمعات الشتات » . وكانت الشعارات الرئيسية تتمثل في التمرد على العمل وتجميع المهاجرين ونهضة الأرض - أنها الاشتراكية المتحدة من ماركس ومن أشياعه .

وتبدد الحلم أفلا تصبح اسرائيل على حد ما قاله اموس أيلون مجرد متحف لأفكار القرن التاسع عشر يقام وسط ديكورات القرن العشرين ؟ هل ستصبح مثل مسرحية لتشيكوف اعاد دورينمات كتابتها ؟ وعلى أية حال فإن الأيدولوجية القديمة لم تعد تؤثر على الواقع ! فلم تعد تسحر الشباب وستظل غريبة عن الطبقات الجديدة القادمة الى اسرائيل والمدفوعة برياح التاريخ القاتلة أكثر منها برغبتها في الرحيل عن بلاد المهجر مثلما كان حال الرواد الأوائل الذين تركوا في بداية هذا القرن ، مدارسهم وجامعاتهم ومجتمعات الفيتو وقراهم وعائلاتهم للحضور الى اسرائيل من أجل « البناء والتشييد » .

وقد طرا على الصهيونية ما يقوض كل الايديولوجيات المجسدة : تآكل السلطة وغروب الطاقات وتلقى صدمة الواقع والشعور بحلول التعب بعد النضال ، والفقلة بعد المرض والعبء بعد الرحمة . أو كما يقول مارتين بوبر بوضوح : « أن ما كان يمثل في الأصل أمرا يتمسك به اليهود الفقراء قد أصبح هواية لليهود الأغنياء » .

وقد أسهمت الفضائح الكثيرة التي توالى خلال الأعوام الأخيرة في التعجيل بتبديد شعارات الأمس .

الفضائح

ولا ترجع سيطرة حزب العمل على الحياة العامة لاسرائيل الى الاعوام الأولى لنشأتها فقط .. فمنذ الثلاثينات وفي معاهد المنظمة الدولية للصهيونية والوكالة اليهودية وفي « اليكوف » (وهى الجالية اليهودية التى كانت تقيم فى فلسطين فى عهد الانتداب) استولى حزب الماباى برئاسة دافيد بن جوريون على زمام الامور منتصرا على الأحزاب الصهيونية العامة والتحريفية التى يميل قوامها الاجتماعى الى أن يكون تجسيدا لقوام الطبقات المتوسطة .

وفى بداية عهده كان حزب الماباى يضم العمال ويدافع عن مواقفهم الطبقية وذلك طبقا للنقائيد الماركسية لمؤسسيه الأوائل وهم أ. د. جودون دير بورشوف (الذى شكل الجناح اليسارى لحزب الماباى) وبيير كاتزنبلسون واسحاق تابينكى وتحت رعاية بن جوريون ما لبث « الحزب العمالى » ، الذى افتخر حتى الآن بصفته البروليتارية أن أصبح سريريا حزبا للجماهير وتوضح فقرة من كتاب نظرى « للنبي المسلح » العجوز هذا الانتقال « من تمثيل طبقة الى تمثيل الشعب » . وسرعان ما صور كاهن سدى يوكر مفهوم « ولاية الدولة على الطبقة » .

ومن جانب آخر سيطرت الحركة الصهيونية العمالية سريعا على المنظمات الحيوية مثل منظمة الهستادروت (الاتحاد العام لعمال اسرائيل) التى تشكل النقابة وصاحب العمل معا ، وذلك بوساطة المؤسسات الكثيرة التى أنشأها فى مختلف المجالات مثل الصحة والتعليم والاسكان والهوى . ولفترة طويلة وبصورة واسعة حتى يومنا هذا تخضع الحياة اليومية لهذه العلاقة مع المؤسسات المنضمة للحزب : فيولد الانسان ويحبا ويتغذى ولبس ويسكن ويتعلم بفضل الخدمات التى تعتمد بشكل كبير على هذه النقابة والتى لم يستطع حزب الليكود المنتصر فى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ أن ينتزعها من العمال .

وحتى عهد قريب - فى نهاية حكم جولدا مائير - كان الشعار الذى نادى به بن جوريون هو : « الحكم بدون الجيروت وبدون الشيوعيين »

بمثابة قانون . ويشير بذلك الى أن قاعدة الائتلاف الحكومي كان لها أساس وطني حيث أن الأحزاب الصغيرة التي كانت تنضم الى حزب العمل كي لا تختفى في حزب المعارضة كانت لا تعترف سوى بحزب مباي الذي أصبح فيما بعد حزب الافودا (حزب العمل داخل المabay) .

واستمر الحال كذلك لدرجة أن الأسلوب السياسي للحياة العامة في اسرائيل قد تشكل لمدة طويلة بالصهيونية الاشتراكية وعقلية قادته - اغلبهم قادمين من نفس المدن الصغيرة في بولندا وروسيا - وطريقه حياتهم المتقشفة المصبوغة بنفحة عمالية تثير اليوم ضحك مجتمع أصبح أكثر وقاحة . بيد أن هذا الأسلوب قد تشكل بصفة خاصة بفضل « الهيمنة العمالية » التي يدافع عنها بشدة حزب أصبح مع الأعوام حزب الطبقة المتوسطة ، حزب « يأكل كل شيء » تعرفت فيه جماهير المواطنين المحافظين على نفسها وأتاح فرصة انتشار حب الغير وحب الأقارب وكذلك . ولد طبقة جديدة من « الابرتيشكي » على أسوأ طريقة بولشفية ، يعتمد وجودها وأعانتها في المقام الأول على رضا سكرتيري الاتحادات والأقسام واللجان والأنظمة الأخرى التي نشرها الحزب في الدولة بأجمعها .

ولم يساعد تطور « الكم » على التجديد الايديولوجي أو الجسرة الفكرية . لدرجة أن البعض ومنهم « اموس اليون » أستطاع أن يكتب وهو على حق في ذلك ، أن المتمردين القدامى على القدر قد أصبحوا قديرين بدورهم . واتجه القادة القدامى الى انتهاز سياسة التشدد حيال العرب ولم ينصتوا الى مطالب أو مشاكل الطبقات الاجتماعية الجديدة وأغلقتوا أنفسهم في حصون السلطة وفي مراكزهم القوية وكانوا لا يتمتعون بالجرأة في تحليلاتهم السياسية وتبع القادة القدامى والذئاب الشابة في الحزب في قلعة ضخمة تعادل الانطواء النفسي والسياسي . ومنذ ذلك الحين قاموا بأى عمل للاحتفاظ بالسلطة وفي بعض الأحيان للاستفادة منها مستخدمين أحط الوسائل : مثل شراء الأصوات في الانتخابات ، وتحويل الاموال العامة الى صناديق الحزب والتجسس السياسي داخل الحزب نفسه وبين الروافد المتنافسة وممارسة الرشوة ونشر الافتراءات ضد الأعداء السياسيين . أن القائمة طويلة جدا لدرجة أنها أسهمت كثيرا في اندحار حزب العمل في ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ .

ومع ذلك ، فإن الأحزاب العمالية كانت قد تلقت ما يشبه الانذار اثر « زلزال » حرب كبور . فعلى الرغم من الهدنة التي حظى بها نظام

الحكم القائم في مجال الانتخابات بذل شارون اعتبارا من اليوم التالي للحرب مباشرة جهوده من أجل تجميع قوى المعارضة في بديل - هو ليكود لحزب العمل الذي يفقد اعتباره بصورة مطردة ، بيد ان الخلافات الداخلية والصراع على القمة من اسحاق رابين وشمعون بيريز وبصفة خاصة الفضائح الكثيرة التي تنفجر نبعا ، لم تترك لهذه الاحزاب السياسية فرصة التقاط الانفاس .

ان طول الفترة التي فضاها العماليون في السلطة قد دفعت عناصرهم السياسية المستهلكة الى مقاعد المهمين في المحاكم وزنانات السجون ومقاعد الاقلية البرلمانية أو صحراء النسيان المنمثلة في المعارضة . أن صوت الشعب هو صوت الله .

وعندما تولى اسحاق رابين السلطة في يونيو سنة ١٩٧٤ خلفا لجولدا مائير ، تنبأ له المراقبون السياسيون بمستقبل باهر وأعلنوا عن تدوم عهد جديد لحزب العمل العجوز . . لقد كان رابين صانع انتصار الأيام الستة - على الرغم من التقرير الذي كتبه عزرا وايزمان وانتشر في الخفاء والذي اتهم فيه رابين بأنه ضعيف الشخصية - وكان سفيرا ممتازا في الولايات المتحدة ويقول البعض أن الحكومة الأمريكية نصت لآرائه . ومنذ توليه السلطة صرح قائلا : « لن نستخدم السياسة التي سننتهجها مقياسين ولا ميزانين . سوف نبذل جهدنا لتطبيق العدالة حتى ولو تعلق الأمر بسياسيين سقطوا » .

أى أنه ستم التضحبة « بالابقار الثمينة » (وهم الأشخاص الذين لا يمكن المساس بهم) على حد تعبير رابينوفيتش وزير المالية الذي خلفه بنحاس سابير . ولا شك في أن أول هذه الشخصيات من وجهة نظر أابينسوفينش كان سلفه سابير . . ومنذ توليه الوزارة ظل الوزير الجديد يثير الشك في إدارة بنحاس سابير الذي كان يدبر ، في الحقيقة ، وزارة المالية منلما يدبر صاحب محل في القرية محله الصغير ، منلعبا بالمليارات في دفتره الصغير الأسود حيث كانت تفيد بنود الميزانية .

وقد أمكن لرابينوفينس أو يقول أن الحكومة الجديدة قد أنهت عهد « مجلة الشعب » وكان يعنى أن الإصلاح الضريبي الذي أقره سيساعد على « تطهير الجو العام » وتلك طريقة أخرى للإشارة الى أن بنحاس سابير لم تواته الشجاعة لاتخاذ اجراءات اقتصادية أكثر صراحة . . واكتفى

هذا الأخير بالاجابة على هذا الاتهام قائلا « عندما نوليت الوزارة عام ١٩٧٠ لم أجد سوى ٣٧٠ مليون دولار في خزانة الدولة ، ولدى مفادرتي تلك الوزارة تركت بها مليارا ، ٦٥٠ مليون دولار » .

ولم تكن هذه الانتقادات الاولى سوى مجرد مناوشات اذا ما فورنت بسلسلة الفضائح التي وقعت خلال السنوات الثلاث التي تولى فيها راين الحكم .. فالواقع أن الجمهور ، الذي يعاني من فضول مرضي تغذيه الصحافة المنطلقة ، كان يرى ويسمع ما يجعله في دهشة مطردة . فقد تلوثت أسماء أكثر الشخصيات الاسرائيلية حظوة ، الواحد تلو الآخر . ومن المجدى أن نتوقف عند الدور الذي تلعبه الصحافة الاسرائيلية الحرة والراسعة الانتشار (تعد النسبة المئوية للنوزيع مقدرة بالفرد الواحد من أعلى النسب في العالم) والتي تستقى معلوماتها من أفضل وأسوأ المصادر الصحفية المتبره على الطريقة الأمريكية . فلو كانت فضيحة مماثلة لفضيحة ووترجيت قد حدثت في اسرائيل لأسفرت عن نتائج فتاكة ان الاسرائيليين يقرأون كثيرا وربما يكتبون أكثر مما يقرأون . ويتعسايش اليمينيون واليساريون في نفس الصحف ويهاجمون بعضهم البعض من صفحة الى اخرى وبنفس التعطش الى الحقيقة والطهر الخيالي .. ونقدم الأذاعة والتلفزيون الدراما النفسية الحقيقية للمشاهدين الذين تطيب لهم مثل هذه الفقرات التي ترغم الرجال المعنيين على الادلاء بشهادات علنية والتي لا تشبه في شيء الحضرية التقليدية التي تميز الأذاعة والتلفزيون في فرنسا . وفضلا عن ذلك كان يتم لقاء الضوء العام على شئون كثيرة بمجرد أن يتقدم صحفي بتكوى ضد هذا أو ذاك من الشخصيات ويعقب ذلك مختلف التظلمات وأقوال الشهود (الذين تكون أسمائهم مجهولة في معظم الأحوال) التي تسجل طيلة الساعات الأربع والعشرين لليوم على فيشة التسجيل الاوتوماتيكي في الادارة الوطنية للبوليس .

ووقعت الفضيحة الاولى في يوليو سنة ١٩٧٤ وهي المتعلقة بالبنك الانجليزي - الاسرائيلي .. أن الشبهات التي تحول حول هذه المنشأة المصرفية لم تمنع مدير البنك من ايداع مبلغ ٣٠ مليون مارك و ١٠ ملايين فرنك في فرع البنك بلندن .

وقام البنك في عهد ليهوشوا بن سيون بمضاربات تتسم بالمغامرة وتتعلق بأسعار بيع العملات والمعادن عن طريق شركات لا وجود لها في الواقع . وقد أدت هذه العمليات الى اغلاق البنك . وتبدد مبالغ يقدر

بحوالى ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية فى هذه العمليات وقد حكم على مدير البنك بالسجن مدة اثنى عشرة عاما لانه سرق مائة مليون دولار من رأس مال البنك وأفرج عنه فى اكتوبر سنة ١٩٧٧ . لأسباب صحية . ويقول البعض ان علاقاته مع عدد كبير من رجال الحكومة الجديدة لها صلة بهذا الاجراء . وعلى أية حال تسبب عدم حذر السلطات المالية للدولة فى ضياع أموال عامة لم تقدر قيمتها بعد .

وما انتهت مشكلة البنك حتى ظهرت فضيحة جديدة تتعلق بفرع شركة للقطيع العام وهى شركة « فيرى » التى بلغت خسائرها من المشروعات التى نفذتها فى الخارج خلال أعوام ٧٠ ، ١٩٧٤ ما يقرب من مائة مليون ليرة . وقد تم بيع هذه الشركة المتخصصة فى مواسير المياه فى عام ١٩٧٢ لشركة « سوليليونية » وهى فرع من شركات القطاع العام للهستادروت وتناولت الشكوك التى أثرت من جراء افلاس شركة « فيريد » مجالا آخر غير المجال المالى يتعلق بالسياسة . فاذا كانت الهستادروت هى القلعة التى يحميها العماليون ، فهل استخدمت الخسائر الضخمة للشركة والتى غطتها النقابة لدى شرائها لها فى تمويل صناديق حزب العمل ؟ ان هذا السؤال سيظل مطروحا لمدة طويلة . .

وإدى أفلاس « أنتر ناشيونال كريدى بنك » فى جنيف الذى يملكه سور تيبور دزنبوم الى الكشف عن سلسلة من الفضائح لن يكفى كتاب بأكمله لشرح أساليب المضاربة والتزوير وأنشاء الشركات الوهمية وممارسة الرشوة والسرقات التى مارستها مجموعة أشخاص مشهورين من المديرين - وأشهرهم ميشيل تسور الذى حكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاما - فى شركة « صندوق اسرائيل » وهو صندوق للاستثمارات العامة يضم مستثمرين من يهود الشتات من بينهم البارون آدموند دى روتشيلد .

وتفاقم سوء الجو العام المحيط بمختلف هذه العمليات ومس جميع الأجهزة الكبرى فى الدولة التى اتهمت الواحدة تلو الأخرى بأنها مهدت السبيل للجوء الى الخداع وقبول الموظفين للرشوة حتى وصلت الاتهامات الى حصن وزارة الدفاع ، وهو الذى كان بعيدا عن النقد .

ووضعت ثلاث فضائح أخرى اللمسات الأخيرة لاحتضار سلطة العماليين : تلك هى قضايا بادلين وأدنى وأخيرا قضية رابين نفسه .

وكان أثير بادلين ، الرجل النموذجي لحزب العمل ، وذلك الانسان المرح رغم تجاوزه الخمسين عاما قد مضى حياة طويلة كرجل عام قاده من العمل الجاهد كمناضل في خلية الى عتبة منصب محافظ بنك اسرائيل بعد أن شغل منصب رئيس صندوق التأمينات الصحية للمستأدرون الذي يكفل معظم الخدمات الصحية العامة في اسرائيل . وكان على وشك أن يعين محافظا لبنك الدولة (وهو منصب يوازي منصب الوزير) ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٧٦ عندما فجر الصحفي أيجال لافيف الذي يعمل في صحيفة هاعولام هازي (وهي صحيفة أسبوعية سياسية ساخرة يديرها النائب السابق أوري أفينري ولا ترحم المنحرف الثرثار ولا الإباحية التي تحولت الى أمر سائع ومحبيب) ، وكشف عن فضائح الطفل المدلل لحزب أفودا . فما هي التهم التي وجهت الى هذا الرجل الذي يعترف ببساطة أنه يحب الحياة الرغدة ، والذي يلقي بأموال طائلة على موائد القمار في لاس فيجاس والذي يظهر دائما في المجتمع بصحبة عتيقاته المتتاليات - ومن بينهن محاميته - والذي يصرح في أحاديثه الى التلفزيون بأنه ينتمي الى الطبقة الراقية لكي يخفي خطاياه الواضحة ، لقد اتهم مرة أخرى بالمضاربات على الأراضي وفي العقارات وباختلاس أموال الدولة .

وقد تركه الدولة يواصل المفاوضات الشاقة مع الممرضات اللاتي كان اضربهن من أقسى الاضرابات التي عرفنها اسرائيل ، ثم القى القبض عليه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات .

كما فقد أعز أصدقائه وهو ابراهيم أوفير وزير الاسكان (الذي تنسبه حياته العملية حياة يادلين بشكل غير عادي) اعتباره وحيانه في آن واحد . . ويرجع عهد الاتهامات التي وجهت اليه الى الفترة التي عمل فيها مديرا لشركة الاسكان التابعة للمستأدرون وتتعلق بقصور خدماته وإدارته السيئة والامتيازات التي خص بها أشخاصا عاديين من أهله أو المقربين اليه . .

ففي الثالث من يناير سنة ١٩٧٧ ذهب أوفير الى شاطئ البحر بالقرب من هرزليا وانتحر ب إطلاق الرصاصة على رأسه . وفي هذه المرة لم يدن المتهم بيد أن موجة الاشاعات التي انتشرت وما أبداه زملاؤه من أعضاء الحكومة أو الحزب من عدم تعاطف ، قد دفعت بهذا الرجل الى الانتحار . ولن يتسنى لأحد معرفة ما اذا كان أوفير مذنباً أم لا ، حيث أغلق ملف قضيته فور الاعلان عن وفاته . .

وفي النصف الأول من مارس سنة ١٩٧٧ فان اسحاق رابين (الذي
راس حكومة انتفالية تتولى السلطة الى ان تجرى الانتخابات في شهر مايو ،
وذلك بعد اقضاء وزراء الحزب الدينى في شهر ديسمبر قام بزيارة لرئيس
الولايات المتحدة الجديد جيمى كارتر . . وذكر الملاحقون الصحفيون
الاسرائيليون ان الرئيس الأمريكى أبدى تفهما كبيرا حيال وجهات النظر
الاسرائيلية وأقام علاقات بالغة الود مع اسحاق رابين .

ومع ذلك فسرعان ما أعلن جيمى كارتر في أول تصريح له « ضرورة
انشاء « وطن » للشعب الفلسطينى وعودة اسرائيل الى حدود سنة ١٩٦٧
وبعد انتخابات مايو لم يستطع ييجين الا ان يعاتب منافسه السابق لانه
اخفى عن عمد اختلاف وجهات النظر بينه وبين كارتر لأسباب تتعلق
بالانتخابات .

وفي العاشر من مارس ذهب ثلاثة من موظفى السفارة الاسرائيلية
الى البنك الوطنى فى واشنطن للحصول على مرتباتهم الأسبوعية وأعلن
لهم موظف الخزينة وهو يتسم بطريقة بلهاء : « لقد زارتنا سيدتكم الأولى
أمس . انها رائعة الجمال حقا » .

ولم بتطلب الأمر من الصحفى — صحفى مرة أخرى ! — دان مارجال
من صحيفة هآرتس الذى كان يعمل فى واشنطن ، سوى أن يطلب ايداع
مبلغ خمسين دولارا فى حساب مدام رابين كى تنفجر المشكلة بأكملها .
ونحت أعين الراسل المندهرت كتبت موظفة الخزينة على ظهر كراستها
رقم الحساب وهو ٤٦٩٨٥٥٣ . وثمة شك فى أن يكون الصحفى قد حفظ
الرقم عن ظهر قلب .

ورغم الزوجان أن حساب ليا رابين لم يتجاوز ٢٠.٠٠٠ دولار
— ٢٠ الف دولار فى الحقيقة — وأنهما فتحاه لتغطية النفقات الأخيرة
لإقامتها فى واشنطن حيث كان رابين سفيرا بلبلاده . . فهل كانت ليا رابين
تجهل القانون الذى يحرم على الاسرائيليين فتح أى حساب فى الخارج ؟ .
وهل كان رابين . . .) يجهل بدوره وجود هذا الحساب ؟

وحمل اسحاق رابين فى خطاب له نقله التلفزيون — وأجمع المراقبون
السياسيون انه كان أفضل الخطب التى القاها فى حياته السياسية —
نصبا من المسئولية فى أخطاء زوجته وقدم استقالته . . وهبط اسمه
بناء على طلبه من رأس القائمة الى المركز العشرين بين مرشحي الحزب

وتولى شيمون بيريز رئاسة الوزارة بالنيابة الى حين اجراء الانتخابات في ١٧ مايو .

وأخيرا تحقق حلم شيمون بيريز - ولكن في ظل أية ظروف ! ذلك الحلم الذي راوده منذ بداية حياته السياسية حينما كان مع موسى ديان أحد المحيطين ببن جوريون العجوز . وأخذ المتخصصون في المسائل الانتخابية يقدرون حجم فرص الانتصار المتاحة أمام العمال بعد أن أصبح على رأسهم رجل عرف بمواقفه المتشددة وربما استطاع أن يكسر شوكة اليكود المتطلع الى السلطة . أفلم يهزم بفارق بسيط في المؤتمر الذي عقده حزب العمل قبيل الانتخابات لاختيار مرشحه حيث حصل على ١٤٠٤ صوتا مقابل ١٤٤٥ صوتا حصل عليها اسحاق رابين ، منافسه الذي لم يلزمه الحظ طويلا ، لقد قامت منافسة بين الرجلين ، على القمة منذ الأمام الأولى لتولى رابين الحكم قبل ذلك بثلاث سنوات ..

صراع على القمة بين رابين وبريز

ومن المعروف ان شيمون بريز يمثل نتاجا نقيما للتكنوقراطية لا نهمة الايدولوجية كثيرا ويتبنى الاسلوب العملى ، وكان عضوا فى جناح رافى الذى يمثل الاتجاه الاكثر يمينية داخل حزب العمل . وكان من الشبان الثوريين واسهم فى ادارة وزارة الدفاع بالتعاون الوثيق مع بن جوريون . ويشتهر بريز بولائه لفرنسا نتيجة ذكريات قديمة يملؤها الحنين الى شهر العسل الفرنسى - الاسرائيلى والى عمله المشترك مع الفرنسيين فى باريس خلال المشتريات الكبيرة الحجم من الاسلحة فى الخمسينات من القرن الحالى . .

بيد أن بريز يعد أكثر تشددا من زملائه أعضاء الحزب فيما يتعلق بمستقبل الأراضى ولا يؤيد تقديم التنازلات بل ويناصر اقامة المستوطنات فى الضفة الغربية لنهر الأردن . وقد تزايد عدد المستوطنات التى لم تقمها الحكومة وكان ذلك يحدث فى معظم الأحوال ضد رغبة اسحق رابين والجماعية من حزب العمل وعلى مسئولية بريز بوصفه وزيرا للدفاع .

وبدأت المنافسة بين الرجلين فى المؤتمر الاول الذى عقده الحزب لاختيار خليفة جولدا مائير التى انسحبت اثر شعورها بالتعب وخيبة الامل من جراء عمليات التشكيك فى سلطتها . وفى هذا المؤتمر أيضا ، كان الفارق بين الاصوات التى حصل عليها الرجلان ضئيلا للغاية حيث بلغ ٤٤ صوتا . ولم يمنع ذلك شيمون بريز (الذى أصبح الرجل الثانى فى الحزب) من انتهاج سياسة شخصية بحتة هاجمها رئيس الوزراء عدة مرات ، ذلك أن تشدد بريز فيما يتعلق بالأراضى كان يهدد بدفع حزب المابام الأقرب الى اليسار - الى خارج الائتلاف الحاكم . . وقد انعكست الخلافات بين الرجلين على الحزب من الداخل فانقسم الى معسكرين بين مؤيدى بريز وانصار رابين .

ولم يخف بريز نواباه عند اقتراب موعد انتخابات عام ١٩٧٧ . فقد ابد مناقشة « ديمقراطية » جرت داخل الحزب ورشح نفسه ضد رابين رئيس الوزراء الذى كان مؤيدوه يرون أنه يجب أن يتم تعيينه بصورة اجماعية حفاظا على « وحدة الحزب » .

وفد اتاح القدر الساحر للذئب الشاب الذى انهزم مرة أخرى عشية الانتخابات فرصة أخيرة بقيادة حزبه الى النصر ولكنه كان مجرد منافذ للوصية .. وعاد لينتظر العودة المحتملة الى السلطة مثله فى ذلك منافسه اسحاق راين الذى لم ير بعد أن مجال عمله العام قد انتهى ، او ربما ليجث - من يدري ؟ عن مخرج مثل زميله السابق موشى ديان وأيضا وبلا شك أبا إيبان الذى كان زميله فى المواجهة مع راين تطلعا الى ممرات السلطة التى يشغلها الليكود الان ؟ .

عملية عنتيبي

بينما تبددت الآمال التي علقت على مجموعه رابين - بيريز ، وقع حدث حلف لهذه المجموعة آخر توهج لها : وهو عملية عنتيبي في صيف سنة ١٩٧٦ .

فقد اختطف الفلسطينيون والامانبون طائرة فرنسية وأرغموها على الهبوط في مطار كمبالا . حيث احتجزوها بالنواطئ مع السلطات الاوغندية . وبلغ الامر بعيدى أمين : الشرس الذى يشين قارة بأكملها ، حد زيارة رهائن الطائرة المحتجزين في صالات المطار الذى بناه الاسرائيليون في فترة النهاون الاسرائيلي - الاغندى . ألم يحصل عيذى أمين على شارات رجال المظلات التى يحملها بكل فخر بعد أن أمضى فترة تدريب في صفوف جيش الدفاع الاسرائيلي ؟

وبسرعة فائقة قام الارهابيون الامان بعملية فرز للركاب حيث فرقوا بين اليهود وبين الآخرين . ومنذ ذلك الحين اقتنعت السلطات الاسرائيلية بعدم جدوى اجراء أية مفاوضات لأن التفاوض لن يحول دون تنفيذ القرار الخاص باعدام الرهائن اليهود وهو القرار الذى تأكدت صحته بعد الافراج من الركاب عن غير اليهود .

الفرز : ان الكلمة اصابت الراى العام الاسرائيلي بصدمة لأنها توقظ لديه مرة أخرى ذكريات اليمية عن عملية الفرز التى اجراها فيما مضى الامان ايضا وهكذا كان الناريخ يكرر نفسه وكأنه مسرحية مأساوية فممازالت ذكرى النازية نؤلم هذا الشعب الذى قرر الا يكون لعبية في يد العدر . مهما كان الثمن : وأن يرسى ضرورته الدابة ويقود مصيره كبفما شاء وستكون عملية عنتيبي عملية مضادة لعملية أوزويتشى . أوزويتشى حيث كان يتم انتقاء الذين سحرقون في الأفران وترك الذين سسيؤجل اعدامهم مؤقتا بسبب الاعمال التى يقومون بها .

عندما كان أطفالنا يكون على القنصلية كان العالم يلزم الصمت

انها أبيات الشاعر الاسرائيلي ناتان النيرمان وتدل ، افضل من أى تحليل ، على الشعور بالعزلة الذى يلزم شعبا أصبح — اوهو الى الابد ؟ — حذرا تجاه العالم ويقول الذين نجوا من معسكرات التعذيب انه — اذا كانت عملية مثل عملية عنيتيبي قد وقعت من قبل ، فربما ما كتب لعملية اوزويتش ان تحدث ..

وقد تركت الجراح التى خلفتها عملية اوزويتش بصماتها على الحساسية اليومية للاسرائيليين الذين اكسبتهم التجربة صلابة والذين فقدوا بلا شك كل ميل الى انتظار الخلاص واصبحت ارادة الحياة والبقاء قوية لديهم . وهم يفضلون التضحية بانفسهم على الموت اذعاناً لارادة غيرهم . تلك هى روح الماسادا .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ ظهر كتاب بعنوان (حوار بين المقاتلين) وصف الشكوك والامال والساؤلات التى عاشها الجنود الذين نجوا من نيران الحرب . وانتشرت نكتة بين آلاف النكت ، تقول ان احد القادة قال « اعتقد ان الحمل سيعايش الذئب معايشة سلمية فى نهاية التاريخ ، مثلما وعدنا الانبياء . ولكن حتى فى هذه الحالة افضل ان اكون انا الذئب » .. ولا يحتاج ذلك الى تعليق .

ودخلت عملية تحرير الرهائن بوساطة الفدائيين الاسرائيليين التاريخ . ومما لا شك فيه انها فتحت فصلا جديدا فى السياسة التى تنتهجها الحكومات تجاه الارهاب الدولى .. وثارت موجة من الاعتراضات على المبادرة التى اتخذتها اسرائيل لتحرير رعاياها — على الرغم من المديح للرسمى النادر وموافقة الراى العام العالمى الذى ادهشته جراءة الجنود الاسرائيليين الشبان . وبعد انقضاء عام على عملية عنيتيبي حظيت العملية التى قام بها الكوماندوز الالمان لتحرير ركاب طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا كانوا محتجزين كرهائن بتأييد اجماعى وبامتداح كثير من الحكومات ومن بينها الحكومة الفرنسية ، التى لم تبد اى تشدد حيال الابتزاز الارهابى عندما افرجت عن ابو داود .

البديل المستحيل

استحلفك بالله أن تغير الحكومة تفكيرها
لأنى أوكد لك أن هذا التفكير سيفودكم الى
الهاوية »

اليكس دى توكفيل

خطبة فى الجمعية الوطنية

قبل ثورة عام ١٩٤٨ بفترة وجيزة

الصهيونية وتياراتها

غداة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، فرض لفظ التغيير نفسه بقوة في مصطلحات السياسة ونودي بهذا اللفظ السحري بكافة اللهجات ، كما ظهر في جميع المقالات الافتتاحية . فقد بدت خريطة إسرائيل السياسية حتى الآن ثانية كما ورثتها الدولة اليهودية عن المسرح القديم للسياسة الصهيونية دون أن تطرأ عليها تقريبا أية تغييرات .

فعندما كتب تيودور هرتزل - وهو ليبرالى تقليدى من القرن العشرين - عن الدولة اليهودية ، لم تكن النظرية التى صاغها وسميت بالصهيونية ترجع الى التوراة بقدر ما كانت ترجع الى مازينى وغاريبالدى . ومن المؤكد أنه كان يعنى روابط الذكريات والحلم التى تربط الجماهير اليهودية بالدولة الاسرائيلية . ولم يكن الدافع وراء ذلك أية مهمة تبشيرية ولا أية نظرة اجتماعية واضحة . وانما كان الدافع صرخة « الموت لليهود » التى سمعها - وهو صحفى نمساوى يعمل فى باريس - فى فناء الكلية الحربية حينما كانوا يجردون القبطان دريفوس من رتبته ، وقد كان دريفوس ملهم فكره وعمله .

فمنذ عام ١٨٩٧ وهو تاريخ أول مؤتمر صهيونى انعقد فى مدينة بال وحتى العشرينات كانت الصهيونية تيارا سياسيا يرتبط الى حد كبير بموجة يقظة القوميات . فبقيام الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ ، وانبعاث الآمال المتولدة عن الاشتراكية ، ونمو النظريات الكبرى للتقدم الاشتراكى - التى تأثر بها بعض يهود أوروبا - رغم أنهم لم يكونوا روادها - كان هناك عدد كبير من أولئك الذين يريدون الجمع بين الصهيونية والاشتراكية .

وبنفس الصورة وكرد فعل لذلك ظهرت نزعة صهيونية أكثر وطنية فى صورة « تقليدية » ، كان مناحم بيجين أحد أنصارها . ولم تتردد هذه الصهيونية فى استخدام شعارات أكثر تشددا من برامج المعتدلين « التى تطالب بأدنى حد من المطالب » وأكثر تشددا من مواقف الحركات الوطنية (التى تطالب بجزى موحد ، وتنظيم الاستعراضات العسكرية ، والتدريب شبه العسكرى) . وأخيرا ظهر معسكر دينى تبنى مضمون الصهيونية

الدينى المؤثر بهدف الربط بين الدين اليهودى وضرورات قيام دولة حديثة
واخذ يرسخ جذوره فى الحركة الصهيونية .

والتقت جميع هذه القوى - التى تغيرت الى حد ما - على مقاعد اول
برلمان اسرائيلى .

ولكن منذ الثلاثينات ، وبفضل شخصية بن جوريون المهمة ، ونشاط
بعض الرواد الذين كانوا يحلمون بالخلاص الاجتماعى بالعودة الى ارض
اسرائيل ، وخاصة بفضل بعض الانجازات غير العادية التى شكلت وجه
اسرائيل مثل الكمبيوترات ، والتعاونيات ، وجماعات الدفاع الداتى الخ . .
بفضل كل هذا شكلت الصهيونية العاملة الى حد كبير المجتمع الاشتراكى
الصغير ، وتركت بصمتها على جميع مؤسسات الدولة الجديدة التى
انشئت عام ١٩٤٨ . الامر الذى ترتب عليه اضعاف الطابع السياسى على
الحياة العامة ، حتى داخل الجيش الاسرائيلى (ولا يخفى على احد ان
آريل شارون هذا الرجل الاسطورى لم ينجح ابدا فى تولي منصب رئيس
اركان الجيش الاسرائيلى (تسال بسبب تعاطفه مع حزب حيروت حزب
بيجين) . كما ترتب عليه منذ المعارضة ويجدر بنا الانسى انه اكتنف
الاعوام التى سبقت ميلاد الدولة الصهيونية جو ازمة سياسية خطيرة
ومصادمات أخوية بين الاتجاهات المعتدلة (بقيادة بن جوريون) والاتجاهات
الوطنية (بقيادة بيجين) . حتى ان المعارك التى شنت ضد البريطانيين ،
وعمليات الاعتداء ، ومسلك جماعة الايرجون فى بعض العمليات كل هذا
جعل بعض انصار المعسكر العامل يصفون بيجين وانصاره بأنهم «فاشيون»
وظلت التمزقات وصكوك الحرمان لفترة من الزمن سمة من السمات
المميزة للحياة السياسية الاسرائيلية .

ونذكر هنا مثالا من بين آلاف الامثلة ان العجزة والمقاتلين فى حزب
الاستقلال الذين قاتلوا بين صفوف الايرجون أو اليهى (أوجماعة شترن)
التي تمخض عنها فيما بعد حزب حيروت حزب بيجين - وارامل هؤلاء
المناضلين الذين سقطوا فى معارك عام ١٩٤٨ لم تقم خزائن الدولة بصرف
معاشاتهم الا بعد انتهاء الحرب بستة اعوام بفضل قانون عام ١٩٥٤ الذى
صدر متأخرا . فى حين ان أعضاء الهاجانا (جيش الحركة العمالية)
انضموا على الفور الى جيش الدفاع الاسرائيلى الجديد كما قامت الدولة
بصرف مرتباتهم .

وحقيقة القوة ان الحركة العمالية في اسرائيل أصبحت - من خلال أحزابها ، ومؤسساتها - هي والدولة شيئا واحدا - الى حد تملكها لها ، كما يقول البعض ، والى درجة أن هذه الحركة لم تتخيل في يوم من الأيام أن تفقد هذه السلطة .

ولكن عندما عهد العمل الديمقراطي بالحكم الى الخصم الأزلى يوم السابع عشر من شهر مايو عام ١٩٧٧ - في مجتمع ظل يطبق النظام الديمقراطي بصورة سليمة رغم استمرار الحرب فيه - حينئذ اتخذت الحادثة صورة كارثة تاريخية .

فقد أخذ استغلال السلطة ، وازمة الثقة ، ووهن الجهاز الحاكم ، والفضائح والفساد ، والعفن النفسى ، وقلة التجديد الايديولوجى ، أخذت كل هذه الأسباب تتكاتف مع بعضها لاسقاط الاحزاب العمالية .

وهكذا حل الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن محل مبادرة وجراه الآباء المؤسسين الذين أعطوا لاسرائيل أحداث سماتها وأكثرها تطورا تلك السمات التى يعترف أبناؤهم اليوم بأنهم أول من خانوها فمأذا عن الكيبوتز ؟ ان الكيبوتزات التى كانت بالأمس مجتمعا جريشا ، وثورة فى الحياة اليهودية والتى تشغل مراكز الصدارة فى الدفاع والخبرة الاشتراكية أصبحت اليوم نوادى مغلقة وجزرا للرجاء والسكينة الايديولوجية فى مجتمع متحرك متغير ونفوذها أخذ فى الاضمحلال رغم أن أبناءها لا يزالون حتى اليوم يقدمون للجيش قوات من خيرة قواته . وهم « أبناء حلم » اسرائيل كما وصفهم برونوبتلهيم .

وماذا كان مصير الهستدروت ؟ ان الهستدروت الذى كان بالأمس بوثقة سياسية واقتصادية حقيقية للامة الاسرائيلية وهى فى طور تكوينها أصبح اليوم حكرا على بعض الشخصيات البارزة الصغيرة التى فقدت صلتها بالطبقة العاملة . وظلت أعنف الاضرابات التى شهدتها اسرائيل فى السبعينات ماثرا خلافات مستمرة بين قيادة الهستدروت واللجان المتوحشة التى نشأت فجأة فى الموانئ والمصانع والشركات .

ولم يختلف أولئك الذين تولوا الحكم بعد تلك الوجوه الاسطورية عن غيرهم من السياسة اذ أخذوا يعجلون بانتهاء حزب أهلكته الخلافات ومساوىء أعضائه .

١٦٧. فبعد قيادة بن جوريون أو جولدا مائير التي لم يشاركها فيها شريك
نُسب الصراع بين خلفائهم : فكان الالتحام بين راين و بيريز بداية الانهيار
الذي لم يكفل هذا الصراع ممارسة الديمقراطية داخل هذا الحزب ، الذي
تخللته الشقاكات ، وانما أوجد فيه خلافات لم يقق منها .

١٦٨. ومن جهة أخرى كان التحالف المؤقت مع حزب ما بام داخل كتلة معارخ
الانتلافية دائما موضع تشكيك دائم من جانب الحماثم في حزب ما بام الذين
هالتهم المواقف المتشددة التي انتهجها شيمون بيريز .

١٦٩. ان حزب ما بام الذي حاول في بادئ عهدده الجمع بين الماركسية
والصهيونية ، الى حد انه بكى وفاة ستالين في عام ١٩٥٣ قد خفف من
اتجاهه نحو اليسار الى حد كبير الى حد انه اتجه دون ان يشعر نحو
اشتراكية باهتة انحسرت داخل كيبوتزاته ولم يعد يقدم على أى مبادرة
سياسية ذات شأن .

١٧٠. وترتب على تعايش حزب ما بام مع حزب ما بام أن أصبح الأول مجرد
قوة دعم . فأخفى زعماء هذا الحزب خوفاهم من العودة الى المعارضة تحت
شعارات بالية ، حتى أن المعركة من أجل الحوار مع الفلسطينيين ضد
استعمار الأراضي كانت تدور خارجه وبوساطة رجال لم يعودوا معروفين
في مصطلحات « الصهيونية العمالية » القديمة .

١٧١. « ان هزيمة ١٧ مايو تمت بتدبير منا » كان هذا قول دافيد هاكوبين
اشهر وجه من وجوه حزب ما بام .

١٧٢. « والدين سيد السلطة » هي كلمة يشاو ليبوفيتز الابن العاق الذي
بلغ السبعين من عمره . وليبوفيتز رجل لا يلتزم بالتقاليد ، متشدد في
الدين اليهودي ، ولكنه في خلاف دائم مع سلطات الدولة القائمة .

١٧٣. وهذه الكلمة رغم قسوتها الا أنها على قدر من الصحة فيما يبدو .
ان الحزب الوطنى الدينى الذى كان بالامس عضواً في الائتلاف الحاكم مع
حزب العمل ، والذي أصبح اليوم عضواً مع كتلة ليكود ففى هذا الائتلاف
كان هدفه الوحيد الحفاظ على المكاسب التى منحتها السلطة للدين في
الدولة مثل احترام عطلة يوم السبت حيث يعطل العمل بالمؤسسات
الوطنية ، ووجود مجموعة من المدارس الدينية المستقلة التى تقوم الدولة
بتمويلها ، والاعفاء من الخدمة العسكرية بالنسبة لطلبة مدارس التلمود

والبنات اللأى يتبعن التعاليم الدينية ، والالتزام بأحكام الديانة اليهودية ، فيما يختص بالفداء ، فى الأجهزة العامة الخ . .

فضلا عن أن حزب مائدال الوطنى الدينى قد ركز جهوده فى الأعوام الأخيرة على مشكلة اعتناق اليهودية ، ذلك أن مسألة : «من هو اليهودى ؟» مسألة تتسفل بال المسرح السياسى منذ أن أثارها بن جوريون حينما استشار خلال الستينات مجموعة من الحاخامات والعلماء والمدرسين اليهود . وهو سؤال غريب يطرحه هذا الشعب الغريب الذى يبحث دائما عن مشكلات ليس لها حلول . . إلا أن هذا الأمر له أهمية خاصة وأن « قانون العودة » - وهو قانون تنظيى فى دولة لا يوجد بها حتى الآن دستور مكتوب ، وإنما مزيج من القوانين اليهودية والتركية والبريطانية والفرنسية وحاليا قوانين اسرائيلية هذا القانون يسمح لأى يهودى يريد أن يكون اسرائيليا أن يصبح كذلك اذا ما تقدم بطلب بهذا المعنى عند وصوله الى اسرائيل . وعلى أية حال فالبطاقات الشخصية فى الدولة اليهودية تحمل هذه البيانات : المواطنة الاسرائيلية : والجنسية اليهودية (أو المسيحية ، أو الاسلامية ، أو الدرزية) .

ان القانون اليهودى التقليدى كما أمد فى التلمود الموسع والمقنن فى دستور الهالاخا يؤكد أن كل يهودى هو كل من ولد من أم يهودية ، وكذلك كل من اعتنق اليهودية وفقا للأصول - المعقدة والدقيقة - التى قررها الحاخامات فى تقنين بالغ الدقة . ورغم أن اليهودية قد مارست عبر التاريخ أو على الأقل فى بعض مراحل عملية تبشيرية هامة ، إلا أن قلائل هم الذين يسمون اليوم الى اعتناق اليهودية . والحالات الأكثر رواجاً بصفة خاصة تلك المتعلقة « بالزيجات المختلطة » والتى يرغب فيها أحد الزوجين اعتناق الديانة اليهودية التى يعتنقها الشخص الآخر . واليهودية اليوم ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة تنقسم الى تيارات تعرف بمدى التزامها أو عدم التزامها بأحكام الدين . « والتيار المعتدل » « أو التيار الحر » على سبيل المثال لا يهتم بالأجراءات البالغة التعقيد التى يهتم بها المتشددون عند اعتناق اليهودية .

فهؤلاء الذين تبنى آراءهم الحزب الوطنى الدينى وكذلك المتشددون من تشكيل اجودات اسرائيل (هو تشكيل أكثر تشدداً من حيث موضوع الالتزام الدينى) وهؤلاء يريدون أن يقر « قانون العودة » منح الجنسية الاسرائيلية لليهود الذين اعتنقوا الديانة اليهودية وفقا لدستور «الهالاخا» . ويستندون فى ذلك الى الاستمرارية التاريخية والدوجمائية للديانة

اليهودية . ويدعون الى الحفاظ على وحدة الشعب وفقا لذلك القانون الذى أعطى - على مر القرون وفي جميع مناطق الشتات اليهودى - للديانة اليهودية تلك الصورة التى لا تزال تحتفظ بها حتى اليوم ، وعلى نحو لا يمكن للمستقبل نفسه أن يغير منها .

وعدا هذه النقطة التى ظلت مشارجل حتى الانتخابات الأخيرة ، أبد الحزب الوطنى سياسة الحكومة التى كان الحزب يعتبر سنداً لا غنى لها عنه . إلا أن تحولاً قد حدث بصعود نجم بعض الشباب المناضل بين صفوفه مثل زيفوليين هامر ، وزير التعليم الحالى أو اهرورن أبو هاتسيرا وزير الأديان فى وزارة بيجين - الذين يؤيدون آراء وتصرفات المسؤولين فى كتلة جوسن اعونيم (كتلة الايمان) ومعظمهم من حركات الشباب فى الحزب الدينى أو مدارسهم . . وهم أكثر عينية بلا شك من أولئك الذين كانوا فيما مضى يدعون الى الجمع بين اشتراكية رسل التوراة واتباع تعاليم الدين فى المستعمرات الدينية . وفى رأيهم أن أرض اسرائيل كلها أرض مقدسة وعد الله بها الانبياء من سلالة ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وهم يعتبرون إقامة المستوطنات فى الأراضى المحررة فى اليهودية والسامرة واجبا دينيا . وتحالفهم اليوم مع كتلة ليكود ليس بلا شك تحالفا عرضيا كما كان بالأمس تحالفاً وثيقاً حيث يبشر - كما سنرى - بعودة الديانات اليهودية الى قوتها كدين وأبضا كايديولوجية بديلة عن الصهيونية العلمانية الانسانية ذات المطامع العالمية ، التى أسسها الشباب المتمرد فى روسيا وبولندا الذين جاءوا الى اسرائيل هرباً من أسلوب حياة المنفى وقيمها التى كانت اليهودية جزءاً لا يتجزأ منها .

فى هذا الجو الفاسد الذى اتسم به أواخر عهد حكومة رابين فى أشهرها الأخيرة ، لم يدهش الجمهور الاسرائيلى من ظهور نجم جديد فى سماء سياسة البلاد : ايجال يادين رئيس أركان الجيش الاسرائيلى (تسحال) الذى تحول الى علم الحفريات بعد خروجه من الجيش . فهذا الأستاذ الذى يناهز الثانية والستين من عمره ، والذى يشبه فى ملبسه وقلة هندامه السيد المزارع ، والذى لا يرفع من فمه أبداً هذا الفليون الذى لا يفارق الرجل الجامع له اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها ، فقد ولد فى القدس فى أسرة من أكثر الأسر ثراء بحى رهافيا البورجوازي وهو يعتبر فى نظر الشعب الاسرائيلى بصفة خاصة مؤسس إحدى المبادات الوطنية الحقيقية وهى عبادة علم الحفريات . فقد اكتشف

عام ١٩٦٣ على رأس جيش حقيقى من الطلبة الاسرائيليين والاجانب ،
ومن المتطوعين من كافة طبقات الشعب الذين ضحوا بأجاراتهم من أجله ،
اكتشف ، تلك الأطلال الضخمة والآثار المثيرة للقلعة ما سادا فى صحراء
اليهودية المظلة على البحر الميت .

وكانت هذه القلعة المقامة على جبل صخرى يطل على مفترق طرق
استراتيجى فى المدينة اليهودية القديمة آخر معقل من معاقل مقاومة اليهود
للغازى الرومانى . وسقطت فى عام ١٣٥ من عهدنا . وقد روى لنا
فلاقيوس جوزيف مؤرخ الثورة اليهودية الذى قتله الرومان ، هذا
الانتحار الجماعى لآخر المحميات اليهودية الذى شمل أطفال ونساء وكهول
ومقاتلين .

وعلم الحفريات هذا عبادة وطنية لأن الاسرائيليين يريدون بأصرار
شبه مطلق العثور على آثار ماضيهم فى هذه الأرض الزاخرة بالأحداث
التاريخية ، وذلك بحفرها لاستخراج أى شقفة فخارية منها ، وأى حجر
يمكن أن يثبت ويؤكد صحة الشرعية التاريخية لوجود متواصل على
أرض يدور حولها جدال . والاسرائيليون يتشبثون بكل قواهم بهذه
الأرض التى تشهد بقاياها الجغرافية على ملكيتهم لها ، وان كانت الصورة
الانسانية تؤكد بأنها لم تعد أرض مشاع .

وهى عبادة وطنية أيضا لأنه منذ اصلاح قلعة ما سادا استبدت
بالامة الاسرائيلية هذه الفكرة التى شغلت هذه الأماكن ، وهى « ان قلعة
ماسادا لن تسقط ثانية » ، ذلك القسم الذى أقسمت به على هذه
الصخرة دفعة من وحدات صغيرة من الجيش قبل أن يتم استرداد حائط
المبكى . ان فكرة قلعة ماسادا « التى يستشهد بها عادة لتأكيد صلابة شعب
لايلين طالما أطاحت به أهواء التاريخ الدامية على الرغم منه ، ان هذه
الفكرة هى اولا رغبة هذا الشعب الاكيدة فى أن يحيا شامخ الرأس ،
صلب العود .

وقد اعتبر ايجال يادين فى جوانب عديدة ديجولا آخر ، ولكن على
الطريقة الاسرائيلية اذ يمكن الاستعانة به هو الآخر فى ساعة الأزمة .

فى غداة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ عقد يادين اجتماعا بلجنة
« اجرائات » التى كلفت بالتحقيق فى « الاهمال » الذى دفع باسرائيل
الى حافة الكارثة . ومنذ ذلك الحين اخذت حركات الاحتجاج التلقائية

تميل الى جانب هذا الجنرال عالم الحفريات على أمل أن يقرر تخطي الهوة التي تفصل بين عزلته الدراسية ومستنقعات السياسة .

وقد سنحت الفرصة لهذه الحركات بعد ظهور يادين في إحدى البرامج التلفزيونية الشهيرة بعنوان « موكيد » حيث أُعرب عن وجهات نظر على الأقل جديدة - بعيداً عن الاعتبارات المألوفة الخاصة بعلم الحفريات - بخصوص الأزمة التي تقلق المجتمع الاسرائيلي قلقاً شديداً

و اثر ذلك على الفور زادت شعبية يادين بسرعة في استطلاعات الراى العام الذى كان يجهل حتى الآن وجود يادين وهرعت معظم الأحزاب ترسل اليه مبعوثين حاولوا - ولكن عبثاً - الاستفادة من هذه الجلسة المفاجئة .

ونجح مؤسسوا حركة شينوى ، حركة التغيير - ومن بينهم امنون رويتشتاين ، الصحفى الشهير بصحيفة هارتس الصحيفة اليومية الكبرى المستقلة فى تل أبيب ، ومائير اميت رئيس المخابرات السابق ، وبعض الجامعيين ، وبعض كوادر القطاع الخاص ، والصفوة من التكنوقراطيين وكذلك بعض الشباب المناضل ، من أبناء بعض الدول العربية التى تسعى لحل مشكلات هذه الطوائف العربية المغبونة - داخل النظام السياسى الحالى - نجح مؤسسو هذه الحركة فى ضم حركتهم الى الحزب الديمقراطى برئاسة ايجال يادين . فما لبث أن أسفر عن مولد حركة « واسعة » الحركة الديمقراطية من أجل التغيير . التى أصبحت حركة ذات رواج وكانت أول مظهر لحزب جماهيرى جديد (وهى جماهير لم تتجمع فى المدن الشعبية بقدر تجمعها فى الحرم الجامعى ، ومكاتب المحامين والضواحي الأنيقة) . وكان أول تشكيل يفخر بتنظيم انتخابات داخلية سرية لتعيين مرشحيه فى قائمة الانتخابات . فقد كانت الأحزاب الكبرى فى الحقيقة تفضل حتى الآن أن تتم التوزيعات الدقيقة بين الجماعات فى سرية فى لجان محدودة من رجال الدولة ، أو فى اقتراعات رمزية برفع الأيدي حيث كانت النتيجة معروفة مقدماً بسبب الصراع الخفى على النفوذ بين الأشقاء الأعداء فى نفس الحزب .

ومن نقاط القوة أيضاً فى برنامج داش مطالبته بإجراء اصلاح انتخابى . فحتى الانتخابات الأخيرة كانت البلاد تقتصر فى اقتراع بصوت واحد فى جولة انتخابية واحدة ، تعتبر فيها البلاد دائرة واحدة عليها أن تختار قائمة وطنية . وبطبيعة الحال لا يكون النواب المنتخبون

مسؤولين مباشرة أمام الناخبين . ولكن اجراء انتخابات اقليمية قد تساعد على مولد جيل جديد من رجال السياسة ، جيل ينحدر من طبقات الشعب الجديدة جيل يعرف مشاكل هذا الشعب ، بدلا من أن يؤكد النظام الحالي سيطرة الأجهزة الحزبية على تشكيل البرلمان .

ولا شك أن انتخابات ١٧ مايو حين أعطت لحزب داشن ١٥ مقعدا لم تكن تشكل نصرا واضحا لكتلة ليكون بقدر ما كانت تشكل هزيمة لحزب يعراخ . والمقاعد التي انتزعت من الأحزاب العمالية تدل على تغير أصوات المواطنين الغاضبة التي قررت معاقبة نظام الحكم القائم ، خاصة وأن ناخبي حزب داشن يتكون معظمهم من المجتمع العمالي التقليدي .

وبانضمام حزب يادين الى الائتلاف الملتف حول مناحم بيجين في أكتوبر عام ١٩٧٧ سمح للحكومة الجديدة بأن تتمتع بأغلبية برلمانية معقولة ، وأن توجه سياستها في اتجاه لا يميل الى الحزبية كما ساد الاعتقاد عند تشكيل هذه الحكومة في المرة الأولى حينما طرح بيجين الثقة على حكومته في الكنيست يوم ٢٠ يونيو من نفس العام .

إلا أن صورة المسرح السياسي الاسرائيلي لن تكتمل ما لم تشر الى وجود نظرية نشيطة لبعض الأحزاب الصغيرة بل وبعض الجماعات الصغيرة التي تكاثرت على مر الأعوام في طرقات السياسة المكتظة . ان اصطباغ الحياة السياسية بطابع شخصي والعداوات التي لا تنتهي بين الأحزاب ، والخلافات من أجل ترهات لفوية ربما ورثت عن روح المجادلة التي يتسم بها التلمود - كل هذا أوجد شقاقات وولد جماعات صغيرة عديدة تجمعت حول رجل أو فكرة أو طموح .. وغالبا حول ضفينة ما .

وليس ظهور فلاتو شارون بالأمر الذي يبعث على الدهشة فهذا الشاب الذي يناهز الخمسين من عمره ، ذو البنية المشوقة ، والترف الصارخ الذي جاء الى اسرائيل عام ١٩٧٣ ليستثمر أمواله فيها - أموال لم يتحقق كسبها في كل مرة بالطريقة المشروعة سواء في فرنسا أو في الشركات الدولية العديدة - هذا الشاب ربما ينظر اليه رجل الشارع على أنه روبنسون كروزو « يهودي آخر » . ومع ذلك فلم يضايقه أبدا أن هذا الرجل الذي خالف القوانين الحالية ، استخف بالسلطات الفرنسية التي كانت تطالب بطرده في الوقت الذي أطلقت فيه سراح أبو داوود الارهابي الفلسطيني أحد المتهمين في عملية الاعتداء التي وقعت أثناء

الالعب الأولمبية . وكان فلانو يتمتع بقدر كاف من الأصوات بحيث يمكنه أن يترشح معه على نفس قائمته الانتخابية نائبين آخرين . إلا أنه فاز وحده بمقعده لأنه تقدم « بمفرده » إلى الكنيست . وخلال هذه الفترة عكف شارون على دراسة اللغة العبرية حتى يمكنه أن يعبر من فوق منبره عن أفكار طال انتظارها . إلا أنه كان ينبغي أن يمثل أمام القضاء خاصة وأنه اتهم بشراء أصواته .

أما سولانيت البوني الابن العاق لحزب العمل ، الذي يرأس حركة هذا الحزب من أجل الحقوق المدنية ، وعدو الدين اللدود في الدولة ، فقد ناضل في إصرار وتصميم من أجل الزواج المدني في بلد تخضع فيه الأحوال المدنية لأحكام الدين ، كما ناضل من أجل حقوق المرأة ومحاولاته الدائبة لمداواة عيوب البيروقراطية جعلته عنوانا غير رسمي لمكتب مطالب المواطن اليهودي .

وأخيرا لا يمكن أن نغفل قوى اليسار ، وهي بالطبع تشكل أقلية سواء من حزب شيلي أو حزب راجاج الشيوعي الموالي لموسكو وستالين . ويضم حزب شيلي أنصار الحوار مع الفلسطينيين بل ومع منظمة التحرير الفلسطينية . ويجمع هذا الحزب الشيوعي ناخبيه بصفة رئيسية من بين السكان الغرب ، ويعبر هؤلاء السكان بوساطته عن معارضتهم الوطنية دون أدنى اكتراث بالماركسية النظرية لزعماء الحزب . أما حزب راجاج فقد حوى النائب شارلت بيتون « الفهد الأسود » وهو مجرم سابق ومناضل من أجل قضية الشرقيين ، ورفع من فوق منبر الكنيست أصوات المنسيين في المجتمع الاسرائيلي دون أية تعقيدات .

ولا يمكن أن تتصور الحياة العامة في اسرائيل بلا أى اثر لهذه الأحزاب الصغيرة التي يمثل كل واحد منها مصالح واهتمامات محددة ، والتي تعطى مذاقا لهذا المطبخ السياسى الذى لولاها لأصبح مملا للغاية .

فمع صعود كتلة ليكود البطيء والصلب في نفس الوقت في مواجهة حزب العمل أصبحت عملية الاستقطاب الثنائى أمر بالغ الأهمية .

على أعتاب الحكم

عندما ضم حزب حيروت قوته الى قوة الحزب الحر داخل حزب جحال في الانتخابات التشريعية عام ١٩٦٥ ، وعلى الرغم من حصولها على ٢٦ مقعدا الا انها لم يحصلوا بها على عدد المقاعد التي حصل عليها كل منهما على حدة في عام ١٩٦١ .

وفي عام ١٩٦٩ ظل عدد مقاعدهما في الكنيست السابع ٢٦ مقعدا . وغداة الانتخابات عام ١٩٧٣ فقط وبعد « الهزة الأرضية » التي أحدثتها حرب الففران قفزت كتلة ليكود (التي خلفت حزب جحال) قفزتها الأولى وحصلت على ٣٩ مقعدا . وما لم يفلح في تحقيقه الزواج بين الحزبين حققه النشاط المحموم الذي قام به الجنرال اريل شارون : حينما أحرز تقدما حاسما لنهضة هذه القوة التي رشحت نفسها لكي تحل محل السلطة الاشتراكية القائمة .

ان حزب حيروت (حزب مناحم بيجين الحر) الذي تولد عن جماعة الايرجون ذات النشاط السري ، هو حزب من المناضلين الذين زادتهم نيران حرب الاستقلال صلابة ، وقوت شكيمنتهم تجربة المعارضة في مواجهة حزب ماباي عدوهم الأزلي . ولم يحجم أعضاؤه مدفوعين بدوافع — قوية — عن استخدام اللهجة الهجومية لهجة العنف (على سبيل المثال في المظاهرات ضد مشروع التعويضات الألمانية) ، وازدادوا تماسكا لشعورهم بالانتماء الى « أسرة » هامشية ومغلقة . وحزب حيروت حزب وطني لا يعيش الحاضر بقدر ما يعيش ماضي الاساطير والصراعات . وأن كان اعتقاده الشديد في ملكيته ، « لصفى نهر الأردن » قد أصبح شعارا الا أنه أبعد عن الحقائق . ولولا شخصية بيجين القوية للذاب هذا الحزب بصورة تدريجية ولولا أيضا مساندة جنرالات مثل شارون وعزرا وايزمان .

أما الحزب الحر فيميل الى الوسط بنزعة وبحكم الضرورة أيضا ، ويضم المستوطنين القدامى في فلسطين الذين سبقوا الرواد الاشتراكيين ، وأصحاب الشركات الاسرائيلية الصغيرة والمتوسطة ، والطبقات المتوسطة وهو من أنصار عدالة التوزيع بين القطاع العام والقطاع الخاص ، ومن

أهدافه مكافحة المشكلات البيروقراطية التي تقف حجر عثرة في سبيل المبادرة الفردية في الاقتصاد ؛ كما يدعو الى نظام اقتصادى حر معقول ومخطط . وتعد السياسة الاقتصادية التي ينتهجها سيحا ابرليخ وزير المالية وزعيم الحزب الحر ، صورة لذلك . وأعضاء هذا الحزب أكثر اعتدالا بلا شك من شركائهم في حزب حيروت في مجال السياسة الخارجية، وأقل تشددا عنهم فيما يتعلق بالعرب والأراضي . وهم يشاركون رفاقهم في حزب بيجين حقوقهم من قيام دولة فلسطين (دولة عرفات كما تقول كتلة ليكود) لو تنازلت اسرائيل عن أراضي اليهودية والسامرة . الا أن الجنرالين أيريل شارون وعزرا وايزمان سيعملان على توثيق عرى هذا التحالف المزعزع بين الحزبين لجعلها منه في النهاية أداة للتنابؤ .

أن أيريل شارون بطل حملة أفريقيا الذي نجح في نقل قواته على الجانب الآخر من قناة السويس ، على الرغم من مخاوف هيئة الأركان ، كان يتطلع دائما الى مستقبل وطنى وقد سنحت له الفرصة عندما انضم الى الحزب الحر ، وعندما قاد الحزبين الى الوحدة بما يشبه القوة لخوفهما الشديد من ميوله . ولخيبة أمله في تحفظاتهما ، وعقليتهما المتجمدة بعض الشيء بسبب معارك المعارضة القديمة ، الاغلال التي تعيق عمل أجهزتها والعراقيل الاجتماعية التي تقف حجر عثرة في سبيل المسيرة نحو الحكم ، قاطع أيريل شارون كتلة ليكود . . وعمل في حكومة رابين لفترة من الوقت كمستشار عسكري ، كما تقرب من أيجال يادين ، وأدار بنجاح أعمال مزرعته الشاسعة بصحراء النقب كلما سنع له الوقت . ثم قرر تأسيس حزب بزعامته حزب شلوم سيون « سلام لصهيون » وعليه حصل على مقعدين في البرلمان ومنصب وزير الزراعة . . بل كانت له أيضا اليد العليا في المستوطنات وهو أحد روادها الأوفياء . أن شارون هو موارث آخر في انتظار نابليون آخر .

أما عزرا وايزمان قائد السلاح الجوى الاسرائيلى ، فقد قاد طياريه الى الانتصار المفاجيء عام ١٩٦٧ . وهو مزهو بنفسه ، وعلى قدر كبير من البلاغة ، لا يكتث بالايديولوجيات والعمل هو دينه الوحيد . وقد تأثر هو الآخر بسحر كتلة ليكود ، فقادته رحلته الى الانضمام اليه ثم الانسحاب منه ، في انتظار الفرصة المنشودة التي اتاحت له عشية الانتخابات عام ١٩٧٧ ، أن أسلوبه القتالى الذى يحتفظ به حتى في الحياة المدنية جعله يغير من

عادات كتلة ليكود وعادات بيجين . فتولى تنظيم الحملة الانتخابية لهذه الكتلة بمعاونة مجموعة لامعة من رجال الدعاية ، وحرّم على مناحم بيجين التدخل فيها اللهم الا بالظهور أمام الناخبين وبالقائه الخطب المسموح له بها . وأطاعة زعيم كتلة ليكود الذى أعينته الأزمات القلبية ، اذ رأى فيه الخليفة الذى طالما كان يحلم بأن يخلفه فى زعامة الحزب على مدار ثلاثين عاما من الكفاح فما هو هدف عزرا وايزمان اذن ؟ هو تجنب بيجين الوقوع فى الشراك التى ينصبها له حزب العمل عند اقتراب الانتخابات لحملة على رفع القناع البرلماني الاينى الذى يحترم العادات ويحترم الروح الجماعية الطبية ، فيكشف من ثم عن وجهه الحقيقى المتمرد ، ذلك الوجه الذى لم ينس شيئا من الماضى ، ولم يتعلم أى جديد . وقام عزرا وايزمان بشن حرب دعائية حقيقية على يوسى ساريد ذلك الصحفى الشاعر والنائب ذو العقل المفكر اللامع فى حزب العمل ؛ فاثار نزاهتهما - الهادىء فى بعض الأحيان ، والحاد أحيانا أخرى - غبطة الصحف الاسرائيلية والجمهور . ويبدو انه تواطأ خفيا كان يجمعهما فى هذه الحرب - حرب البيانات ، والمعارك المكتوبة ، والدعائية - تلك الثورة العارمة - ثورة الشباب من الرجال على انظمتهم الحزبية الكهلة بعض الشيء . وهكذا دخلت اسرائيل معهما - سواء متجهة الى الأسوأ أو الى الأحسن فى زمرة الانظمة الديمقراطية التى ينتهجها الغرب .

وفى مساء يوم الانتخابات قال عزرا وايزمان هذه الكلمة عندما رآه المشاهدون يعلق فى ابتهاج قائمته الانتخابية : « لا داعى للخوف أن الموقف فى البلاد سيكون أفضل من أى وقت مضى . وان أملى لكبير فى أن يتحقق السلام الذى طالما كان منشودا » .

وقبل أن يعين عزرا وايزمان وزيرا للدفاع ببضعة أيام حرص على أن يذكر كلمة « السلام » أمام المسلايين من المواطنين الذين اذهلهم التغيير الشديد الذى طرأ على مجتمعهم . ولم يكن عزرا يجهل انه بناء على هذا السلام الذى ظل لفترة طويلة حلما بعيد المنال - بناء على هذا السلام بصفة خاصة - سيكون الحكم على هذه المجموعة التى قادها الى النصر .

انه يعرف الآن أن دخول المجموعة - التى تمسك حاليا بزمام الحكم - أن دخولها لتاريخ مرتين بالسلام الى حد كبير . فتراها ستكون حادثا عابرا فرضته أهواء القدر ، أم ستنتجج فى التغلب على الصعاب وفى تغيير مسارها ؟ ليس غريبا فى تاريخ اسرائيل الزاخر بالأسى أن يأتى السلام من حيث لا يتوقع .

الثورة بالانتخابات

اسرائيل هي دولة على أهبة الحرب
ومجتمع مثقف في نفس الوقت ، انها
اسبرطة واثينا في آن واحد :

سول بيئو

« في عودة القدس »

طفولة زعيم

ان مناحم بيجين صغير وضئيل الحجم ، يضع نظارة مستديرة وسميكة على عينيه وجهه غائر الوجنتين وهو يبدو كرجل من رجال التلود اكثر مما يعطى انطباعا بأنه رجل اعلنت السلطات البريطانية عن مكافأة لمن يأتي براسه (وقدرها عشرة آلاف جنيه بريطاني) ويصف آرثور كوستلر دهشته حينما وجد نفسه غداة حرب الاستقلال امام زعيم « الارجون » فقد سبق ان التقى به في المرة الاولى في السر . ودار الحديث بينهما في سرية تامة . ويروى بيجين في ابتهاج كيف حاول الصحفي الكاتب الانجليزي أن يشعل سيجارتين ليرى وجهه . وكتب كوستلر يقول «من نبرة صوته التي كانت تصلني في الظلام من الجانب الاخر من المنضدة ، تصورته ضخما ، وناسكا منعصبا . والحقيقة انه كان صغيرا ، ضئيلا ، رهيفا ، ضعيف النظر ووجهه هادىء وجاد مثل وجه المعلم . الا ان الأصوات تبدو خداعة في الظلام مثل السجائر والطعام . وهو أرعن ، ولكنه واثق من نفسه مثل الأشخاص الذين انتهى بهم الامر الى التكيف مع خجلهم . وهو يتحدث بقليل من التعصب ويقدر كبير من الروبة والثاني الى حد اننا نجد في دعائته قدرا من البلاغة والعنف . وهو يشبه الرجل المثقف في ملمسه الذي يفتقر الى الهندام ، ملابس لا يتناسب معه . كما يشبهه في تأثيره السحري المحدود . ولقد تفاهمنا عندئذ اكثر مما تفاهمنا عندما قام بتمثيل دور الرجل الخفى » .

ثم كتب كوستلر فيما بعد هذه العبارة عن مناحم بيجين ، وهى صورة واضحة لجيل من الرواد في اسرائيل : « أنهم قوم لم تكن لهم طفولة لان الظروف فرضت عليهم في وقت مبكر مسؤوليات تتجاوز أعمارهم . أنهم اطفال معجزة لم يلعبوا أبدا لعبة البلى » .

ومع ذلك فقد كان لبيجين طفولة مدللة . تلك الطفولة المغمورة بالرعاية التي تنعم بها الاسر اليهودية التقليدية . وقد ولد بيجين في مدينة برست ليتوفسك ببولندا عام ١٩١٣ في شهر الاحزان عند اليهود لانه يخلد ذكرى تدمير معبد القدس . ومن هنا كان اسم مناحم ومعناه الساموى . وهو ثالث طفل لأسرة متواضعة للغاية . وقد كانت قلة امكانياتها مسببا في

الإيواسل الشاب مناحم بيجين دراساته الثانوية في إحدى المدارس الثانوية كما كانت تمنى أسرته ، وإنما في إحدى المدارس العامة .

وفيها درس الآداب القديمة ، وتعلم اللغة اللاتينية التي يميل إلى استخدامها من آن لآخر ودرس بصفة خاصة في فترات الراحة بين الحصص الدراسية معادة السامية المتأصلة في الشعب البولندي . وقد روى فيما بعد أنه تحمل على مضض في يوم من الأيام مزاح وسخرية رفاقه في الفصل الذين راحوا يتهكمون عليه لرفضه مخالفة قدسية يوم السبت باجتياز امتحان اللغة اللاتينية الذي تحدد في ذلك اليوم المقدس .

ونلاحظ فيما بعد في أعوام المقاومة نفس هذا الالتزام الشديد بالتقاليد ورغم علمنا بأن نضالنا كان مباحا حتى في يوم السبت نظرا لضرورته ، إلا أننا كنا نفضل في هذا اليوم ألا نستخدم أسلحتنا الأمر الذي يعلمه الانجليز وكانوا يحترمون يوم السبت اليهودي أكثر من احترامهم ليوم الأحد .

ولم تكن المدرسة الثانوية بولندا وحدها الفرصة التي تعرف فيها بيجين على معادة الشعب للسامية . فقد كانت بولندا دولة مفتتة تقاسمتها طويلا كل من بروسيا ، وروسيا والنمسا . وسرعان ما وطأت أرضها الجيوش الألمانية ثم السوفيتية ، ومن ثم نمت فيها بذور الروح الوطنية كما نمت بها في نفس الوقت كراهية الأجني ، وبالتالي كراهية اليهود . . ولم يكن من السهل على مناحم الشاب أن يندمج في « الذات » الوطنية التي كان أول ضحاياها . إلا أننا يمكن أن نتصور أن هذا المزيج الثقافي الذي كان غارقا فيها لم يلبث أن أيقظ فيه التطلع إلى شخصية وطنية مستقلة تلك الشخصية التي سرعان ما وجدها بين صفوف « البيطار » وهي منظمة للشباب في الحركة الصهيونية التعديلية .

وحينما توجه بيجين إلى مدينة وارسو في سن الثامن عشرة من عمره لدراسة القانون كان « بيتاريا » لامعا من أتباع فلاديمير زيف جابوتفسكي . ولما كان يتمتع فعلا بموهبة خطابية ، فقد أخذ يتجول بين الطوائف اليهودية لينقل لها كلمة السيد . وخلال أحد مؤتمراته التي كان يجوب فيها بين هذه الطوائف تعرف على فتاة شابة هادئة رزينة . « وفي الحال قرر أن تكون زوجته » وتم الزواج بعد ذلك ببضعة أشهر في وجود جابوتيفسكي الذي اهتم بتكريم الرجل الذي أصبح خلال هذه الفترة ممثلا لمنظمة البيطار في بولندا . ولم تفارقه الزا بعد ذلك .

ولنعد ادراجنا الى طفولة بيجين . فأبوه زيف دوف بيجين هو سكرتير الطائفة اليهودية بمدينة بريست ليتوفسك . ووجهه وجه يهودى متعالى ترك اثره على رئيس الوزراء المقبل . وثم رواية تصف شخصيته باختصار انه فى يوم من الايام فاجأ زيف جنديين بولنديين يضايقان احد الحاخامات فرفع عصاه وانهاى بها ضربا على ممثلى القانون . فقبض عليه ، وضرب ، ثم عاد الى منزله غارقا فى دمائه الا انه كان سعيدا . وعندما دخل الالمان مدينة بريست ليتوفسك لأول مرة قبل تسليمها للسوفيت فى اطار معاهدة ريبنتروف مولوتوف توجه زيف دوف بيجين الى « القيادة الالمانية » يطلب قائمة بأسماء اليهود الذين تم القبض عليهم والتصرف له بزيارتهم . وتسهيلا لمسهاه قدم وثيقة تشهد بأنه عمل كمترجم للجيش الالمانى ابان الحرب العالمية الأولى .

الا أن الالمان عادوا مرة ثانية الى مدينة بريست ليتوفسك وكانت عودتهم عودة مشؤومة . اذ كان ابو مناحم وامه واخوه من اول ضحايا الالمان وروى بيجين هذا الحادث بعد ذلك ببضعة أعوام قائلا : لقد سار أبى - كما علمت فيما بعد - الى الموت بين ابدى النازى وهو يردد شعارات الدين اليهودى ، والنشيد الوطنى العبرى .

وكان مناحم بيجين نفسه فى ذلك الوقت فى مدينة لتوانيا حيث فر فى عام ١٩٤٠ عند دخول قوات النازى مدينة بريست ليتوفسك . وتم القبض عليه فى فيلنو لنشاطه الصهيونى : « أن اللجنة الخاصة الاستشارية للشئون الداخلية التابعة لمجلس الشعب تعتبر مناحم بيجين عنصرا خطيرا على المجتمع لذا قررت سجنه فى معسكر للأعمال الشاقة لمدة ثمانية أعوام .

واطلق سراحه بعد ذلك بفترة وجيزة من سجن لوشيسكى فقرر بيجين التطوع فى الجيش البولندى تحت قيادة الجنرال اندبرز الذى اتجه من الانحاد السوفيتى الى ارض فلسطين عن طريق ايران والعراق ، وقد استخدم بعض اليهود البولنديين وسيلة الانتقال هذه للذهاب الى ارض الميعاد ولكن سرعان ما كانوا يتركون الجيش بمجرد وصولهم الى المكان المقصود .

أما بيجين نفسه فلم يترك الجيش (لان ترك الجيش أمر مخالف للشرف فى مفهومه) وانما عمل فيه لمدة عام ونصف الى أن اطلق سراحه فى أواخر عام ١٩٤٣ . وبعدها مباشرة عين قائدا لقوات « الارجون » . حينئذ بدأت أمجد فترات حياته ، الفترة التى مارس فيها نشاطه فى السر .

ومنظمة « ايرجون تزفلى ليومي » (وهى منظمة عسكرية وطنية) تأسست عام ١٩٣٧ (وتميزت عن الهاجانا بأساليب عملها التي حكمت عليها بممارسة نشاطها سرا) وباتجاهاتها السياسية . فبينما كانت الهاجانا نوعا من ميليشيا الطبقة العاملة ، استقطبت منظمة ايرجون اولئك الذين تصدوا للصهيونية العمالية .

واخفت منظمة ايرجون مطابعها ومخابئها في تل أبيب حيث عاش مناحم بيجين نفسه « في سرية تامة متخفيا تحت اسم مستعار واحة » . وكتب بيجين يقول ان السلطات العسكرية الانجليزية وجهاز المخابرات اعتقدوا ان لدينا آلاف الجنود المحترفين الذين لم يكن لهم من عمل سوى « الارهاب » المناهض لبريطانيا . ولم نحاول ان نبدد شكوكهم هذه ! فالى ان جلت القوات الانجليزية عن فلسطين لم يكن لدى المنظمة سوى بضعة عشرات من الأعضاء يعملون بصفة دائمة في النضال السرى (وكان عددهم احيانا يقل عن عشرين ولكنه لم يزد أبدا عن أربعين اما الأعضاء الآخرون - وعددهم بالمئات وأصبح فيما بعد بالآلاف - فقد استمروا يؤدون أعمالهم العادية ، الى جانب بقائهم تحت تصرف المنظمة كلما دعتهم للعمل بها . أنهم جيش شعبى حقيقى .

وفى يوم ٩ أبريل ١٩٤٨ ، وبعد سلسلة من الأعمال الرائعة في جميع أرجاء البلاد ، قام مقاتلو منظمة ايرجون - بمساعدة أعضاء جماعة شترن - بحادثة فظيعة ودامية . فذبحوا ما يزيد على ٢٥٠ رجلا وامراة وطفلا في قرية دير ياسين على مسافة غير بعيدة من القدس .

فما هى ظروف هذه الحادثة ؟ وكيف وقع هذا العمل المروع ؟ لم تنته حتى الآن وبعد ثلاثين عاما المجادلات الدائرة حول هذه الواقعة المؤلمة في مسيرة الصهيونية الطويلة نحو السيادة . ولا تزال الدعاية العربية تشير الى حادثة دير ياسين لذكر « فظائع اليهود » وكالعادة كان رد اليهود بأنه من الخطأ التحدث عن هذه الواقعة على انها مذبحة مقصودة ضد المدنيين . وهى في رأيهم أولا عملية حربية ، ثم اخطار السكان بها مسبقا حيث دعوا للاحتفاء بالمرتفعات .

وكانت النتيجة المباشرة لمسألة دير ياسين أساسا هى إثارة رعب حقيقى بين العرب الفلسطينيين في فلسطين الذين أخذوا طريق الهجرة بأعداد كبيرة حيث بدأوا يقتنعون بأن أعمالا من هذا النمط سوف تأخذ في التزايد .

وعندما أصبح مناحم بيجين رئيسا لوزراء اسرائيل طلب أحد الصحفيين الأميركيين من الياهو اليسار صديقه الحميم - ورئيس مكتبه الحالى أن يعطيه صورة سياسية عن رئيس الحكومة الجديدة . فكان الياهو اليسار : « أقرأ كتابات زيف جابوتنسكى وسوف تجد كل شىء فيها » .

ولا يمكن للمرء أن يفهم شيئا عن شخصية بيجين وأفكاره ، وقراراته وفلسفته السياسية ما لم يرجع الى فلاديمير زيف جابوتنسكى ملهمه وأبى الصهيونية العدلية .

فمن هو جابوتنسكى ؟ قلما أثار حاكم صهيونى مشاعر فياضة كتلك التى أثارها جابوتنسكى بواقع الاخلاص المطلق وشبه الثقافى من جهة ، وكراهية عمياء من جهة أخرى . فبعد أن استنكرية « المؤسسة الصهيونية » ، مات جابوتنسكى فى نيويورك عام ١٩٤٠ ، وأعرب فى وصيته عن رغبته فى نقل رفاته الى فلسطين بعد قيام الدولة اليهودية . ولم تتحقق هذه الامنية الا مع مجيء ليفى أشكول بعد قيام دولة اسرائيل بما يزيد على خمسة عشر عام .

ففى ١٩٥٦ ، سأل جوزيف سيثتمان - الذى كتب سيرة حياة جابوتنسكى - بن جوريون عن سبب عدم نقل رفاة زعيم الصهيونية التعديلية الى فلسطين . فأجاب بن جوريون قائلا : « أن رفاة هرتزل والبارون اوموند روتشيلد هى وحدها التى ينبغى اعادة دفنها فى اسرائيل . وعدا ذلك فاسرائيل ليست فى حاجة الى موتى وانما فى حاجة الى يهود أحياء .

ولد جابوتنسكى فى مدينة أوديسا وهو ينتمى مثل هرتزل وعلى خلاف بيجين الى اسرة يهودية بوجوازية اندمجت فى المجتمع . وقد عرف فى مدينته فى سن الخامسة والعشرين بأنه كاتب مقالات لامع ، ولملم بالأدب الروسى وشاعر موهوب . وحصل جابوتنسكى على دراسته فى إيطاليا الحرة فى أواخر القرن الماضى حيث احتك بكبار مفكرى النهضة .

وتنبه جابوتنسكى الى المسألة اليهودية . كان مفاجئا وعنيفا أيضا . فقد كان للمذابح عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ التى أقيمت فى روسيا ضد اليهود أثر بالغ فى نفسه . وقد اكتشف مثل هرتزل الذى تعرف عليه فى المؤتمر الصهيونى السادس ، وتأثر تأثرا شديدا - أنه يهودى من خلال الشعارات المقيتة التى رفعتها المظاهرات المعادية للسامية .

• وفي عام ١٩١٧ وفي أوج الحرب العالمية أسس جابوتنسكى « الفيلق اليهودى » الذى شارك فى المعارك العسكرية بفلسطين مشاركة رمزية للغاية ومع ذلك أحدث دويا هائلا فى الدوائر الصهيونية . وقد كتب بيجين فيما بعد يقول : « ان أصول منظمة الايرجون ترجع الى الفيلق اليهودى الذى كونه جابوتنسكى وتروميلد ورابان ابان الحرب العالمية الاولى فالبستار هى الغداء الذى فُقدت منه منظمة الايرجون .

وفي شهر يناير عام ١٩١٣ قدم جابوتنسكى استقالته للسلطة التنفيذية الصهيونية لاعتراضه على سياسة قادتها فى تلك الفترة ولا سيما سياسة حاييم وايزمان « سياسة الاستسلام الاعمى » . فالمبادئ التى يدافع عنها والنسب أصبحت فيما بعد مبادئ الصهيونية التعديلية مبادئ متشددة اذ تطالب بأن تقام دولة يهودية باغلبية فى كل الاراضى الفلسطينية بقوة القتال . والا تقام بغير هذه الوسيلة (واصبح هذا الشعار الذى تركه جابوتنسكى شعار منظمة الايرجون فيما بعد) .

وقد أوجز جابوتنسكى برنامج الصهيونية التعديلية كما يلى : « ان برنامجها ليس معقدا . فهدف الصهيونية هو اقامة دولة يهودية . اراضيها : ضفتا نهر الأردن . ونظامها اقامة عدد كبير من المستوطنات . وحل المشكلة المالية : عقد قرض وطنى . وهذه المبادئ الاربعة لا يمكن تطبيقها دون موافقة دولية . ومن هنا كان شعار الساعة : القيام بحملة سياسية جديدة وصيغ الشباب اليهودى فى أرض اسرائيل وفى الشتات بصيغة عسكرية .

وسرعان ما انفصلت الصهيونية التعديلية عن المؤتمر الصهيونى ليؤسس فرعا مستقلا خاصا بها . والخلافات بينهما هنا ليست خلافات نظرية فحسب ، وانما هى أيضا خلافات فلسفية ، واخلاقية ونفسية : وينقل لنا والتر لاکور فى كتابه المذهل عن « تاريخ الصهيونية » هذه الأقوال التى ادلى بها جابوتنسكى فى جلسة سرية : « ان الصهيونية التعديلية ليست حزبا سياسيا او ايديولوجية من الايديولوجيات بقدر ما هى « جنس نفس » . وعقلية فطرية محدودة لا يمكن نقلها وتوجد لديهم بالفطرة . ومن ثم فان مهمة الحركة هى البحث عن قوم من « جنسها » وتنظيمهم ، وليس العمل على تبديد نشاطها فى كسب جهود من الصهاينة ، جمهور مختلف فى عقليته .

وامتدت هذه الحركة التي نادى بهسا فلاديمير زيف جابوتنسكى - لاسيما منظمة شباب « البيتار » - الى أوروبا وبصفة خاصة في بولندا والى فلسطين حيث أصبح لها اتباع كثيرون .

فما مدى مسئولية قائد الصهيونية عن تطور الأفكار الى قام بنشرها هل يمكن اعتباره مسئولا عن بعض الانحرافات اليمينية التي لم يعصم منها أعضاء هذه الحركة ؟ ان السؤال لا يزال بلا جواب . ولكن مما لا شك فيه ان ايدولوجية حركة « البيتار » ايدولوجية عسكرية للغاية : ارتداء زى موحد ، وتعاليم شبه عسكرية ، واقامة استعراضات رسمية ، والتزام شديد بالنظام ويقول نشيد المنظمة الذي حرره جابوتنسكى :

« بالسدم والعرق

سينهض جيل جديد .

فخور ، كريم ، قوى » .

ويفرس في هذا الجيل تقديس « الهادار » ومعنى هذا اللفظ جمال الجسد ، والاحترام والكرامة ، والاستقامة ، والنزاهة ، وحسن الادراك ، والهدوء ، والشرف ، والمهابة . . كما بتعلم هذا الجيل أهمية فضائل الرجولة العدوانية وهى الصفات التي افتقر اليها الشعب اليهودى (رواية بعنوان « شمشون » لجابوتنسكى) .

ترى هل يعد جابوتنسكى رجلا فاشيا ؟ لقد كتب يقول : « انى على العكس من ذلك تماما . فانا أكره بنريزتى جميع أشكال الدول البوليسية . لاننى أشك تماما فى قيمة النظام والقوة والعقاب الى آخر قولك وحتى الاقتصاد المخطط » .

ومع ذلك يبدو أن حركة « البيتار » قد تأثرت - بصفة جزئية على أية حال - بالحركات الاستبدادية فى العشرينات والثلاثينات فالخطب والشعارات والايدولوجية والقيم التربوية هى الخطب والشعارات والايدولوجية والقيم التربوية التي ينادى بها « نظام الفروسية اليهودية المتمركزة على حصون النهضة الوطنية لحمايتها » .

وقد كتب والتر لاكور يقول أيضا : « ان الحركة التعديلية قد أدركت قبل غيرها من الحركات الصهيونية الاخرى بعض النقاط الأساسية وبصورة أوضح ، ربما لانها لم تكن على نفس المستوى من الاكتمال ، وهذه النقاط هى : انه لا يمكن أن تقوم أية دولة يهودية بدون توافر أغلبية يهودية ، وانه

لا يوجد أى حل سياسى آخر الا بقيام دولة يهودية وذلك بسبب معارضة العرب للهجرة والاستيطان اليهودى .

وهذا هو « أساس » ايدولوجية مناحم بيجين ، والارضية التى شب عليها والقرارات التى فراها والمستندات التى كان يرجع اليها . والغذاء الذى أمد به خطبه . أن أول ما يهر هذا التلميذ الشاب الذى يميل بطبيعته الى الأسلوب العاطفى الروجدانى هو ما سمي « بالتوحيد » فحركة البيطار « تدعو فى الواقع الى « الصهيونية النقية » التى تخلصت من المصطلحات ذات النزعة الاشتراكية ، مصطلحات هاشوير هانراير » (حركة الشباب الصهيونى الماركسى التى اختلط بها لفترة من الزمن) ، كما تدعو الى الوطنية الخاصة التى لا تتمثل فى مجتمع من الصراعات أو فى اقتصاد طبقى . انما دولة تتمثل فى الدولة .

والذى يهر هذا التلميذ الشاب أيضا هو وجه هذا « السبد » المهييب وحماسه وحيويته .

أما عن العلاقات بين جابوتنسكى وبيجين فلا نعرف عنها الا القليل ترى هل كان جابوتنسكى يعتبره خليفته كما يعتقد البعض ؟ هذا أمر محتمل ومع ذلك وقع بين الرجلين « اشباك » لا ينسى أثناء المؤتمر العالمى الثالث الذى عقده « البيطار » فى وارسو عام ١٩٣٨ . حبت أقترح السيد الكبير الموافقة على قرار بما يلى : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى ولا أقدمها الا للدفاع عنه » . وحينئذ اعتلى بيجين المنصة وتحدث عن طبيعة « الراى العام الدولى » التى لا قيمة لها ، وعدم اكتراث العالم الا بلغة واحدة وهى لغة القوة وختم بيجين كلمته باقتراح قرار معدل : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى وللأستيطان فى بلادى » .

واخيرا تمت الموافقة على قرار بيجين . فجرح جابوتنسكى فى الصميم ، واخذ الكلمة ليقول « اذا كنت يا بيجين لا تؤمن بالضمير العالمى ، فليس عليك الا أن تلقى بنفسك فى مياه البحر » . ورغم ذلك فهناك اختلاف بين الرجلين . صحيح أن كليهما حر ، ووطنى ويدعو الى صهيونية متطرفة وكليهما رومانسى ، وعاطفى ويتمتع بموهبة خطابية كبيرة . الا أن أحدهما ابن موظف بسيط شب فى أسرة يهودية فقيرة ؛ وفى دولة بولندية شديدة العداء للسامية أما الآخر فرجل بورجوازي مقاتل ، تهود متأخرا .

ويرسم حايم وايزمان لنا صورة لجابوتنسكى يتعذر التعرف فيها على خليفته : « جابوتنسكى رجل صهيونى متحمس ، ولم يكن يهوديا

على الإطلاق في مسلكه أو في أسلوب حياته أو في علاقاته مع الناس . فقد ولد في مدينة أوديسا ، إلا أن الحياة داخل المجتمع اليهودي لم تترك أي أثر عليه وعندما توتقت العلاقة بيني وبينه يعد ذلك لبضعة أعوام ، كنت الاحظ - كلما راقبته عن قرب - ما يؤكد لي فيما يبدو هذا الازدواج . فقد كان يميل إلى القبح ، ولكنه كان جذابا في نفس الوقت ، فكان يتحدث بصورة تثير الإعجاب ، كما كان كريما ، وحرا على استعداد دائما لمساوئة الصديق عند الضائقة . إلا أن كل هذه المزايا كان يحجبها طابع مسرخی يميل إلى الأدوار البطولية إلى حد كبير .

وهو أشبه في طرفه بفارس يعجز الكلام عن وصفه . ولم يكن يهوديا على الإطلاق . ونجد نفس الرأي لدى بن جوريون الذي قال : « كانت لدى جابوتنسكى حرية فكرية مطلقة . ولم يكن هناك أي شبه بينه وبين يهود الشتات ، كما لم يكن يشعر بأي ضيق عند وجود أي شخص غير يهودي » .

أن جابوتنسكى يهودي متحرر ، ابن أوروبا القوميات أما ييجين فهو يهودى تقليدى . أنه رجل شاهد الخيانة الأوروبية التي لن ينساها .

فترة عصيبة

لم يكن بيجين وهو في سن الثالثة والستين بالطبع حديث العهد في ساحة السياسة الاسرائيلية . وتوجد صورته بقاعة اللوحات « في متحف جريفيين بين صور الرواد العظام الذين ساهموا في ميلاد الدولة اليهودية . وقد سمح اسحاق رابين لنفسه في فترة من الفترات التي كان من المستبعد فيها توقع طفرات الناجحين أن يصف زعيم المعارضة السابق بأنه « اثر من الاثرينات » .

في الحقيقة من ذا الذي كان يتوقع هذه « العودة » المتألقة ؟ ومن ذا الذي كان يتصور في لحظة من اللحظات أن يعود هذا الرجل المخضرم المتمرس في السياسة الى الظهور في يوم من الايام ؟ وأنه « سيكتشف » ؟ فقد اعتقد انه مستهلك ، لانه اشتغل كثيرا ، وشوهد كثيرا .

فمنذ ١٥ مايو عام ١٩٤٨ تاريخ ميلاد الدولة اليهودية وحتى ١٧ مايو ١٩٧٧ شهدت اسرائيل ثمانية انتخابات تشريعية . وفي جميع هذه الانتخابات كنا نجد نفس الرجل مناحم بيجين على رأس المعارضة . وفي خلال التسعة وعشرين عاما هذه تعاقبت ثلاثة أجيال على رأس حزب « ماهاى » التاريخي وحزب العمل . بينما ظل مناحم بيجين في المعارضة ولم يتغير . فهو الذي كان يقود جماعته دائما الى الفشل ، ورغم ذلك لم يتأثر .

وهناك رواية يهودية قديمة عادت الى الظهور أبان انتخابات مايو عام ١٩٧٧ تقول : كان رجل يسير في الشارع وهو يصيح : « بيجين في الحكم ، بيجين في الحكم . فالتقى به أحد المارة وسأله :

— ما الذى يجعلك تصيح هكذا ؟

— أنا أؤدى واجبى وأصيح ثمانى ساعات يوميا منذ تسعة وعشرين عاما « بيجين في الحكم » .

— وكم تتقاضى نظير ذلك ؟

— ألف ليرة شهريا .

— ألف ليرة فقط ؟ فكيف تعمل بهذا الاجر الزهيد ؟

— نعم هو اجر زهيد . ولكنه عمل مضمون لمدى الحياة .

الا أن الظروف لم تلبث أن اطاحت بحزب الأغلبية . ففي عام ١٩٥٩ ،
وغداة مسألة لاثون (وزير الدفاع في حكومة بن جوريون الذي « تستر »
على تصرفات أجهزة المخابرات الاسرائيلية الخطيرة التي دبرت انقجارا
بالسفارة الامريكية في القاهرة لدفع واشنطن الى مقاطعة ناصر) .

بينما كان يجرى تشكيل حزب « ماباي » ، توقع البعض في هذه المرة
انتصار بيجين الامر الذي لم يحدث . فشمة « خطأ ما » استغله خصومه
على نطاق واسع ربما كلفه بضعة آلاف من الاصوات . ففي أثناء عملية
الانتخابية رأى المسئول عن تنظيم هذه الحملة لتسهيل انتقالات بيجين
— أن تتقدم على رأس سيارات الحزب دراجات بخارية لتشق الطريق
امامها — وبالتدريج انضمت بضعة دراجات للموكب فأخذ تحرك بيجين صورة
استعراض أميل الى الفاشية ، وكانت صورة أفزعت الجمهور .

غداة حرب الفجران اتهمت حكومة جولدا مائير بالاهمال وقلة البصيرة
وتعرضت لحملة من الانتقادات اكتنفها احيانا سيل من السباب . فأخذ
المتظاهرون يصيحون : « لابد من التغيير » . وهتف باستتالها موتى
اشكينازى وهو قائد شاب لاحدى وحدات الجيش بسيناء كان قد شهد
زحف القوات المصرية على قناة السويس ، وأمضى الأيام الأربعة الاولى من
الحرب في مخبأ تحت الأرض مع رجاله ، وقد غل غليل في قلبه .

وعندئذ كان الحكم في متناول يد بيجين . ولكنه لم يدن حتى منه
والحقيقة أن هذا الرجل كان رجلا « خاسرا » على الدوام ومستديما في
المعارضة وعلى أية حال فهذه هي الصورة التي تركها لدى جزء من رأى
العام الاسرائيلي .

والاغرب من ذلك ، أن النكسات المتتالية التي توالى على حزب حيروت
ثم حزب ليكود منذ عام ١٩٤٨ لم تؤثر بأى حال من الأحوال على مركز
بيجين داخل الحزب . فهو زعيم بلا نزاع ولا منازع . ولا يوجد من ينازعه
مكان الصدارة . كما لا يوجد نيار يشك فعلا في الخط الذى وضعه بيجين
بنفسه وحده على رأس الحزب . أن بيجين هو حيروت ، كما أن الديجولية
هى دييجول .

وبالطبع فقد حدثت بعض الاصطدامات ، ولكنها لم تكن شديدة ولم تستمر بحيث تضعف من سيطرة الزعيم الكبير . والرجال الذين تصدوا له لم يحاربوه داخل الحزب . وانما شدوا رحالهم وخرجوا من الحزب مثل سموييل تامير وكان محاميا ناجحا ، وصديقا حميما لبيجين لفترة طويلة من الزمن . كما نظر اليه على اعتبار أنه خليفته قبل أن يترك الحزب في عام ١٩٥٦ ويذهب لتأسيس حزب « الوسط الحر » الذي لم يطل أمده وبعدها وجد تامير في مكان الصدارة في حزب « واشنطن » ثم عين وزيرا للعدل عندما قررت حركة البروفسور يادين في أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٧٧ الانضمام الى الائتلاف الحاكم .

وهناك من شدوا رحالهم أيضا مثل اكيفاتوف وهو نائب في حزب حيروت ساءه ما أسماه بالعادات الديكتانورية للسيد فوصفه قائلا بأنه « جامد ومفرور الى حد جعل عددا كبيرا من أعضاء كتلة ليكود يخشون مواجهته » . وانضم توف أيضا الى حزب داشن الذي يلتقط الجميع .

ويروى أرييه دولزين مرشح كتلة ليكود لرئاسة المنظمة الصهيونية العالمية (وينتمى الى الجناح الحر) أنه جاء في يوم من الأيام ليلتقى ببيجين ليبحث معه مسألة مشار جدل في صحيفة ايلمليخ ربمالت فكتب يقول لزميله : « لتوقف هذا الاجتماع على الفور - لاننى أشعر أنه بدأ يقنعنى » .

واذا كان مناحم بيجين قد احتفظ بسيطرته على الحزب رغم الهزائم التى سجلها فى الحملات الانتخابية العديدة ، فلان هذا الفشل لا يرجع الى شخصه بقدر ما يرجع الى الظروف السياسية .

وكان يتعين ان ينتظر قرابة ثلاثين عاما حتى تحصل كتلة ليكود على « صيغة الشرعية التى رفض منحها أياها . ويقال أن شعار بن جوريون طوال مدة حكمه كان « لا حزب حيروت ولا حزب ماكى » وهو شعار لم يجد عنه ذلك أن الحاكم العمالى العجوز كان ينشد قيسام ائتلاف وطنى من « جميع الأحزاب » ولكنه كان يستبعد منه أولا ودائما الممين والشيوعيين الذين حرمهم من الحكم . وأصدر عليهم حكما بالحرمان السياسى . فكانت أحزابا محرمة .

الا أنه من المستحيل أن تفهم شيئا من التطور السياسى الذى حدث فى كتلة ليكود ولن تفهم بالتالى شيئا من قيمة ثورة السابع من شهر مايو ما لم

نتذكر العلاقات التي قامت بين بن جوريون وبيجين . فقد كان الأسد العجوز يكن كراهية شديدة لزعيم حزب حيروت .

ولن نذكر بالتفصيل تاريخ العلاقات بين الهاجانا (جيش الدفاع اليهودي) والايرجون (حركة المقاومة المتطرفة) . فنحن نعرف اليوم واذا عدنا بذاكرتنا الى الوراء ، ان المقاومة اليهودية ما كان يمكنها بلا شك ان تطرد الانجليز خارج فلسطين وتؤسس الدولة اليهودية ما لم يكن هناك عمل مشترك بين الهاجانا والايرجون ، يتمثل في دفاع سلبى من جانب ، ورد فعال من الجانب الاخر . الدرع والسيف . « الهافلاجا » (اى الاعتدال) كما نادى زعماء « اليسوف » الكبار ، والحرب بلا رحمة كما دعت « الايرجون » .

الا انه لا يمكننا ان نفعل الصراع الذى كان يمزق هاتين الحركتين في تلك الفترة (اذا استبعدنا فترة الوحدة القصيرة بينهما) وقد سعى بن جوريون الى الجمع بين العمل الدبلوماسى ومحاربة المحتل . فلم يكن يتحمل وجود جماعة من المتطرفين خارجين عن طوعه .

وفى عام ١٩٤٤ عرض بن جوريون برنامجا من اربع نقاط على مؤتمر الهسندروت . ولاقت النقطة الاخيرة فيه اعتراضات ، الا انه تم الموافقة عليها فى النهاية ، « ومفادها اننا سوف نتعاون مع السلطات البريطانية حيثما اتجهت فى سبيل القضاء على الارهاب . وانه لمن الجنون والانتحار رفض قبول مساعدتها فى جميع المجالات حيث تكون لنا معها مصالح مشتركة بحجة عدالة شكوانا من نظام الحكم الراهن فى البلاد فى بعض المجالات » .

وبوضوح دعا زعيم حزب « الماباي » الى الكشف عن « ارهابى » الايرجون وتسليمهم للانجليز . الامر الذى اتبع فى حالات عديدة غداة عمليات اغنيالات دامية للغاية . وقد بقيت هذه الفترة السوداء من فترات المقاومة اليهودية مخلدة فى التاريخ باسم « الموسم » (موسم المطاردة) . وفيها تم تسليم بعض اعضاء الارجون الى اجهزة الامن البريطانية التى قامت بتعذيبهم والرج بهم فى بعض الاحيان فى سجون افريقيا .

وكان يمكن ان يتمثل رد فعل بيجين زعيم الايرجون فى الشعور بالحقق والانتقام او المزايدة . ولكنه استطاع ان يتغلب على غرائزه لرغبته قبل كل شئ فى ان يتجنب « محاربة اليهود » بكل ما اوتى من قوة وحتى النهاية . ولا شك ان قراره هذا هو احد القرارات الهامة التى سيخلدها التاريخ .

وهو المبدأ الذى لن يتخلى عنه بيجين حتى أثناء مأساة « التالينا » الشهيرة . وكانت الدولة اليهودية قد نشأت لتوها . ولم يعد «لايرجون زفاى ليومى » وجود كقوة عسكرية مستقلة ولكن المفروض أن هذه الحركة انضمت الى جيش الدفاع اليهودى الجديد . والتالينا هو الاسم الذى يوقع به فلاذيمتر جابوتنسكى كتاباته . ولكنه بصفة خاصة اسم احدى سفن الايرجون التى امتلأت بالأسلحة (٥٠٠ بندقية و ٢٥٠ مدفعا رشاشا تم شراؤها من فرنسا) وكانت تنقل ٨٠٠ مهاجرا . وكان من المقرر أن ترسو انسفينة فى كفار فيتكين . وقررت الايرجون أنزال أسلحتها دون أن تطيع تعليمات الحكومة . وتم توقيع اتفاق بين بيجين ومبعوثين من دافيد بن جوريون رئيس الحكومة المؤقتة (الذى لم يلتق أبدا ببيجين خلال أعوام المقاومة) . ولا تزال بنود هذا الاتفاق حتى اليوم موضع جدل لا ينتهى ولا يمكن لأحد أن بهتدى فيه الى نتيجة . فكانت محنة عصيبة على أية حال . وهى أول وأفجع محنة أيضا شهدتها الدولة اليهودية الناشئة .

ودعا بن جوريون حكومته للاجتماع قبل أن يوجه اندارا أخيرا لزعيم الايرجون . وفيه قال لأعضاء حكومته : « ان الأمر غاية فى الاهمية . اذ لا يمكن أن تكون هناك دولتان . كما لا يمكن أن يكون هناك جيشان . ولن نسمح لبيجين أن يفعل ما يشاء . وعلينا أن نقرر ما اذا كنا سنعطيه الحكم ، أم اذا كنا سنأمره بوقف نشاطه المستقل . واذا لم يدعن فسنطلق النيران » .

ونحن نعرف باقى الرواية . فبناء على أمر من بن جوريون أصدر ايجال الون رئيس « البالمخ » - (احدى وحدات الجيش) - أمرا الى رجاله باطلاق النيران . فأشتعلت النيران فى السفينة بعد أن أطلقت عليها أربع قذائف . وتم اخلاؤها من الجرحى وكان بيجين آخر رجل غادر السفينة المشتعلة .

وقال الأسد العجوز فيما بعد أن مسألة التالينا من اشد القرارات المؤسفة التى لم يسبق له أن اتخذ مثلها فى حياته . ومع ذلك أضاف يقول : « اننى اذا اضطرت الى اتخاذ مثل هذا القرار مرة اخرى فسأفعل » .

ترى هل بيجين يفكر حقا فى ثورة مسلحة كما أشار بعد ذلك ؟ الأمر المؤكد أنه كان يدرك أن هذه الحادثة هى أول تحد وجهه لحكومة اسرائيل المؤقتة الهزيلة وكان من المفروض الا يلين .

وأيا كان رأينا في هذه الحادثة فقد أرسى بن جوريون - باراقة دم يهودى على ضفاف فيتكين - بصفة نهائية أسس الدولة اليهودية ومنحها قوام وجودها وعمودها الفقرى : وهو مصلحة الدولة .

وهنا أيضا برهن مناحم بيجين على قدرة غريبة على ضبط النفس وأكد لرفاقه اليمين الذى أقسمه : « أننا لن نوجه أسلحتنا أبدا الى أشقائنا » . وفى مساء نفس هذا اليوم تحدث الى الأذاعة وتخلل خطابه صوت نحيبه . وفى كتاب « نبرة إسرائيل » كتب مناحم بيجين فيما بعد يقول : سخر أبطال عظام كثيرون من « سرعة انفعالى » عندما جلسوا يستمعون الى خطابى . فليسخروا . فهناك دموع يجدر بالمرء أن يفخر بها والا بحمر خجلا منها . الدموع لا تنهمر عادة من العيون . ولكنها أحيانا تنبعث من القلب مثل الدم « وأضاف بيجين يقول : فلم تقع حروب اخوية كان يمكن أن تقضى على الدولة اليهودية قبل مولدها . وعلى الرغم من ذلك لم تقع حرب أهلية » .

وناضل مناحم بيجين فى الظل من أجل احياء شعبه ، ولم يسع لمجد أو سلطان . وقال البعض بشئ من السخرية « أن الأرجون كانت هيئة إمدادات للوكالة اليهودية » وغداة إعلان الدولة اليهودية وضع مناحم بيجين حركته تحت تصرف الحكومة الاسرائيلية ولم يعد يعمل فى الخفاء . ولشدة تمسكه بالحق ترك لغيره مهمة جنى ثمار النضال المشترك . وحذا بذلك حذو غاربا لى (احدى الشخصيات التاريخية التى كان يعجب بها الى جانب هرتزل وجابوتنسكى) هذا الرجل الجمهورى الذى تكيف مع الملكية أملا فى قيام الوحدة الإيطالية .

ولم يشعر بن جوريون بيجين بأى ارتياح بل والاكثر من ذلك انه ظل يكن لزعيم المعارضة الجديد شعورا بلازدراء الشديد وكثيرا ما كان يتجاهله ويتجنب ذكر اسمه . واذا ما اضطر الى توجيه الكلمة اليه فى الكنيست « البرلمان الاسرائيلى » فكان يناديه بالنائب الذى يجلس الى جانب دكتور بوحنان بادر « أو » هذا الشخص .

أما بيجين فقلما هاجم ذلك الرجل ، الذى ربما يكن له شبه اعجاب خفى ، هجوما مباشرا وشخصيا . فقد حارب سياسته مرغما بكل ما أوتى من بلاغة فى الاسلوب .

وعندما اقترحت حكومة بن جوريون التعويضات الالمانية ، وذلك الاتفاق الذى أبرمه بن ناحوم جولدمان المستشار أو يناور ، ثارت ثائرة

بيجين . ولا شك أن المسألة أصابت الوتر الحساس فكتب يقول في كتاب « ثورة إسرائيل » . اننا لن ننسى لسلامة مستقبلنا وربما لسلامة مستقبل البشرية ما حدث في قلب أوروبا المتحضرة في هذا القرن الذي تحققت فيه الحضارة الالبة . « وثار ونظم مظاهرات أمام البرلمان ، وأعد حملة وأدلى بخطب عديدة . وبلغ في عنفه أمام البرلمان الحد الذي أوى الى إيقافه عن العمل لمدة ثلاثة أشهر » .

غير أن شخصية بن جوريون كانت على الرغم من كل هذا تثير إعجابه الى حد ما . ففي شهر يونيو عام ١٩٦٧ أغلق ناصر مضيق تيران وسحب أوثانت قواته . وباتت إسرائيل مهددة بالاختناق وبدأت نذر الحرب تظهر في أفق الشرق الأوسط . وتوجه زعيم المعارضة لزيارة الزعيم المعجوز بعد أن ثبتت براءته وانسحب الى مستعمرته بسدى بوكر وطلب منه العودة الى الحياة العامة .

ولم يعد ذلك الرسول المسلح « الى الحياة العامة وانما ليفي أشكول - ذلك الفلاح ذو اللهجة الفظة - هو الذي تولى حكومة حرب الايام الستة واتخذ هذا الرجل الهزيل (الذي لا تزال إسرائيل بأسرها تذكر خطابه المؤثر في الاذاعة عشية ٥ يونيو حيث تلثم واضطرب في الكلام اذ كان يشير العطف) قرارا لم يتخذ مثله من قبل قام فيه بتشكيل حكومة وطنية ودعا لأول مرة اعداء حزب « ماباي » النازيين للاشتراك في الحكومة ، مثل بيجين وعزرا وايزمان اللذين أصبحا وزيرين فيها .

وهكذا اصطبغ اليمين « بالصبغة الشرعية » ، وتولى الحكم أخيرا . وخرج من عزلته السياسية في نفس الوقت الذي صنع فيه الحزب .

وغداة الحرب أبقت جولدا مائير - خليفة ليفي أشكول - على الوحدة الوطنية حتى عام ١٩٧٠ عندما استقال بيجين واصدقاؤه حين قررت الحكومة الاسرائيلية الموافقة على الخطوط العريضة « لمشروع روجرز » الذي يقضى باعادة الأراضي المحتلة وفتيت ما يعتبره اليمين الاسرائيلي حتى الآن « إسرائيل التاريخية » .

ومرة أخرى عادت كتلة ليكود الى المعارضة الا أنها أصبحت قوة معترفا بها . فقد انضمت الى المجموعة الوطنية وبات في وسعها التطلع الى السلطة . وتشهد على ذلك الأرقام فمن عام ١٩٣١ . وحتى عام ١٩٧٠ بدأت تتغلغل تدريجيا وبصفة دائمة بين الناحيين . ففي الكنيس لم يعد بيجين

يفكر بهذه العقلية التى يفكر بها « الغريب » . فقد حرص على تهذيب عباراته وان خاتمه هذه العبارات فى بعض الأحيان . وفى ع"م ١٩٧٤ أصبح اسمحاق رايبين رئيسا للوزراء . فصاح زعيم المعارضة من فوق منبره قائلا : لم نر منذ سفينة نوح عشا من الجمائم « مثل عش حكومة رايبين . وأرى من واجبى الوطنى ان اطلع بهذه الحكومة » .

وأصبح بيجين منذ ذلك الحين رجلا آخر يتمتع بالشرعية ليس عليه أى غبار بارعا وعلى استعداد لخوض تجربة الحكم ، دون حاجة الى انتراعه .

تعلم السلطة

بعد تسعة وعشرين عاما من معارضة كرسها منحهم بيجين لعبادة التشدد والمواقف المتعنتة ها هو ذا عليه أن يواجه الاختبار العصيب وهو اختبار الحكم .

وحتى ذلك الحين نجح حزب بيجين في صعوده المتألق دون أن يقدم التنازلات التي عادة ما تسبق أو تنلو النحولات الهامة للأصوات . ولم يجد هذا الحزب في ظل التسميات المختلفة التي اتخذها وفقا لرغبة هذه التجمعات (حيرت ، وجحال ، وليكود) عن مبادئه الكبرى .

وظل متمسكا بهم هذه المبادئ ، ولم يغير موقفه بشأن « أحكامه الأساسية » .

ومنذ عام ١٩٧٠ تشير الأرقام الى أن اليمين أخذ يحقق تقدما مستمرا بين الناخبين (الأمر الذي يتعارض الى حد ما مع التحليلات القائلة بأن اقتراع ١٧ مايو كان « اقتراعا مزاجيا » فقد زحف على الوسط كما تعدى على ميادين حزب العمل التقليدية دون أن يغير رغم ذلك من فكرة . ولم تلعب ظاهرة « الاستنجاد بالوسط » على حد تعريف والتر ليمان ، تلك الظاهرة المعروفة لدى علماء السياسة أى دور في هذا الصدد : فلم تقترب كنلة ليكود من ناخبى الوسط وانما هم الذين انضموا اليها .

ولكن الحكم له منطق مختلف ، اذ تحكمه نظم مختلفة ، وضرورات أكثر أهمية من التأثيرات الانتخابية . والأمثلة السياسية على سياسات المهادنة عديدة ، وكثيرا ما ذكرت بشأن منحهم بيجين . أن جى موليه الرجل الانستراكي هو الذى أدى الى استعجال الحرب الجزائرية ، والجنرال ديجول هو الذى وضع حدا لها بتوقيع اتفاقيات ايفيان . وجون كيندى الحر هو الذى شن الحرب الفيتنامية ، وريتشارد نيكسون ذلك الرجل المناهض للشيوعية هو الذى وقع اتفاقيات باريس .

أن تولى بيجين مسئوليات الدولة ، وتحولته من الايديولوجية الى السياسة قد شفاه من داء الحصبة المثالية الذى يصيب المعارضة فى

طفولتها . ولكنه ما أن واجه حقائق الحكم ، حتى أسرع بتخفيف لهجته . وعلى أية حال هذا ما كان يهمس به بعض الصحفيين بقولهم ستشهدون وقوع بعض المفاجآت .

ولم تلبث أن وقعت المفاجآت فعلا . ولكنها لم تقع حيثما كانت منظرية بالضبط فقد كشف هذا الرجل عن شخصية قوية الى جانب فكر رجل استراتيجي محنك . وبدا صبوراً . وكلما كان يعنى ظاهرة استثناس الناخبين أخذ يعد للامر عدته ، مستخدماً القوة واللين على التوالى ، ويحسب خطواته ، ويعمل خطوة خطوة . وبعد ستة أشهر أرسى سياسته الاقتصادية تلك الثورة الاقتصادية التى قضت على ثلاثين عاماً من النظام الاشتراكي الموجه ، فقام بتقويم الليرة ، والفى الرقابة على الصرف ، والفى التمريفات المجحفة التى فرضت على السفر . ولكنه بدأ أولاً بتحديد أهدافه :

فكان هدفه الأول هو تشكيل حكومة جديدة : فقد حصل بيجين على أغلبية فى الكنيست بانضمام الدينيين اليه من حزب ماندال والمتشددين من حزب أجودات اسرائيل - الذين وعدهم بعود سرعان ما وصفت بأنها وعود دينية - وهى أغلبية ضئيلة بالطبع (٦٣ مقعداً من ١٢٠) ولكننا متجانسة الى حد كبير اذ تسمح له بحرية التصرف وتوجيه سياسته . وهكذا وبعد أن اطمأن الى مساندته أمكنه أن يرفع مزايدته مع الحركة الديمقراطية من أجل التغيير بزعامة إيجال يادين البروفسور الجنرال عالم الحفريات الذى جاء حديثاً الى المسرح السياسى والذى بأمل بمقاعده الخمسة عشر فى البرلمان أن يكون عمله مساعدة ، ولكنه وجد نفسه مستبعداً فى بادئ الامر . ثم اكتسبه بيجين الى صفه مرة أخرى بعد ستة أشهر بمقابل زهيد ، وبنحو لم يكن له فيه دور كبير .

وكان هدفه الثانى : اشعال النيران فى حزب العمل واثارة الفروقة بين صفوفها . انها عملية دبان التى تمت بنجاح وكانت مقدمة لعمليات انفصالية أخرى تلتها .

فقد عين رئيس الوزراء هذا الجنرال الأعور بطل حرب الأيام الستة - الذى انتخب على قائمة حزب معراخ - فى منصب وزير الخارجية . ووافق موسى دبان . فمند فترة طويلة وهو يشعر بعدم الارتياح بين أسحاق رابين الذى يتجاهله وإيجال الون خصمه القديم الذى يكرهه كل الكراهية . كما أنه غير محبوب داخل حزبه حيث لم يتردد البعض فى التاء

تبعات الأخطاء « التي سبقت حرب الغفران عليه . وظل واحدا من هذه الشخصيات البارزة التي تتصدر القوائم الانتخابية ولكن لم يعد أحده يستشير داخل حزبه .

وبدا ديان - الذي كانت إحدى قدميه داخل الحزب والآخرى خارجه - يبحث عن فرصة لمقاطعة هذا الحزب . فصرخ في شهر مارس عام ١٩٦٩ بقوله : « أئننى أشعر بأننى أقرب الى بيجين من بنحاس سابير فى مجال السياسة الخارجية » . وفى أواخر عام ١٩٧٤ فاجأ الجميع حين وقع على اقتراح من كتلة ليكود يطالب بإعلان الضفة الغربية أرضا محجورة وكثيرا ما لوح باستقالته دون أن ينوى ذلك فعلا . واثارت خيانة ديان الذى « انزل » فى أرض « العدو » بعض الاضطرابات فى حزب العمل . وفد وصف أسحاق بن اهارون السكرتير السابق للهستدروت هذا الأمر بأنه (أوتو ستوب سياسى » بينما ذكر البعض فى هذا الصدد كلمة أقل ارتباطا بالمصطلحات السياسية واضطر كل منهما الى التسليم بأنها عملية ناجحة رغم أنها رفضا الاعتراف بذلك صراحة . فقد اكتشف بيجين ثغرة وعرف كيف يستغلها . الأمر الذى حظى بالتصفيق سرا فى الأروقة .

إلا أن الأمر لم يقتصر على ذلك فقد استمرت استراتيجية عمالية . « الاختطاف » فى جميع الاتجاهات . فقد جند أبا إيبان وزير الخارجية السابق فى حزب العمل لمهمة تفسيرية فى الولايات المتحدة - ليؤكد - وهو يضع يده على قلبه - أن المراد هو حماية « الاتفاق الوطنى » وليس السياسة الحكومية البحتة - وبذلك اتضح الفارق . إلا أن هذا المسعى قد أصاب الهدف المنشود تماما وهو انارة البلبلة بين صفوف حزب العمل وجاءت الضربة القاضية بانضمام الحركة الديمقراطية من أجل التغيير الى الائتلاف فقد انضم حزب يادين ، الذى كان يعتزم تغيير كل شيء وأعرب عن تلك الأمنية أمام ناخبيه ، الى الحكومة خافض الرأس وخضعنا لشروط بيجين . وكانت الحكومة الاسرائيلية قد شكلت منذ خمسة أشهر ، وفرضت اتجاهاتها للرئيسية (ولا سيما ثورتها الاقتصادية) . ولم يبق أمام يادين وتامير واميت وكاتز سوى الانضمام الى هذا الإطار .

وكانت نتائج ذلك مؤلة بالنسبة لحزب العمل . فقد وجد نفسه معزولا فى المعارضة إذ احتفظ بيجين بعدد كبير من رجال السياسة الذين عينتهم حكومة رايبين فى الوزارات والادارات ولكن الى متى ؟

أن لينين هو الذى كتب بقول أن أى ثورة لا تقوم الا حين يطاح بإدارة
وبيروقراطية نظام الحكم السابق . وبيجين فى هذا المفهوم غير نورى .
أو أنه نورى شديد الصبر والثانى .

أما الهدف الثالث فقد تمثل فى اكتساب الرأى العام وفى هذا الميدان
بدل بيجين قصارى جهده . ففى رأى رئيس الوزراء الجديد أن النظام
الديمقراطى هو نظام السلطة . ففيه تعطى الأولوية للمؤسسات التى يراد
تشبيتها فى مواجهة مفاوضات الأروقة . وجماعات الضغط التى كانت نتحكم
فى كل الأمور فى عهد حكومة حزب العمل .

فهل يعنى ذلك أن نظام الحكم أصبح رئاسيا ؟ بكل تأكيد - فقد قال
ناحوم جولدمان الذى لم يبد مرتاحا لهذه المسألة « أبا كان رأينا فى هذه
الحكومة الا أن لها رئيسها » . وبدأ مجلس الوزراء يتعقد ويناقش ويتخذ
القرارات دون أن نجد فى الصحف فى اليوم التالى - كما كان مانوفا -
محضرا مفصلا للجلسات . ان السرية - ذلك العنصر الرئيسى فى .
مسرحية السلطة « كانت مكفولة . الامر الذى لا يعنى أن بيجين ليس
ثرارا .

أن بيجين خطيبا بفطرته ومنذ نعومة أظفاره . وهو بلا شك رجلا
السياسة الاسرائيلى الأول الذى جعل من الكلمة أداة للحكم (أكثر من
سلفه بن جوريون الذى كان قليل الكلام) ففى رأيه أن الحكم يأتى بعد
الكلمة . وهو بحركته المسرحية ، وميله الى التحليلات الوجدانية وبأسلوبه
اللاذع اذا ما اقتضى الأمر يؤترك أو يثير استياءك ، ولكنه لا يمكن الا يثير
انتباهك .

فبالكلمة نسج بيجين شيئا فشيئا رباطا مباشرا مع الشعب خلال
الأيام الأولى من حكمه متجاوزا بذلك الأحزاب . نسجها بالكلمة وكذلك
بمجموعة من الاشارات والتقاليد والاحتفالات التى استنفها ببراعة
(وبصورة خطيرة فى بعض الأحيان) .

وفى كتابه « ثورة اسرائيل » أشار بيجين الى كلمة دزرائيلى رجل
الدولة اليهودى الانجليزى فكتب يقول : « أن الشعوب تحكم اما بالقوة
أو بالتقاليد » . وما أن كلف زعيم كتلة ليكود بنألف الحكومة الاسرائيلية
الجديدة حتى توجه الى حائط المبكى كى يستغرق فى التأمل والصلاة .
ذلك المصدر الشرعى للحكم كما لو كان هذا المكان الرفيع المكانة فى التاريخ
وفى الدين اليهودى يعطى قوة للحكم .

انراه ايمانا ؟ نعم ولا فى نفس الوقت . اذ ان الايمان والدين مرتبطان ارتباطا وثيقا فى رأى بيجين حيث كتب يقول ايضا فى « ثورة اسرائيل » ان حائط المبكى كان بالنسبة لليهود - منذ بدأوا يتعرضون للاذلال - محرابهم الذى يصلون فيه من أجل تحقيق امانيتهم ولا ينبغي على الوقحاء ان يستنكروا هذا الايمان فطريق التاريخ حقيقة لا خيال . « وفى عشية رosh Hashana (ليلة رأس السنة اليهودية) قال بيجين فى خطابه الذى تحدث فيه عن امانيه « انى انوب عن الفقراء والمؤمنين » . وقال خلال رحلته الى واشنطن « انه يعتبر نفسه أداة الاله » كما أعلن خلال زيارته الرسمية لبوخارست عن يهوديته التى يرفعها كالعلم ليرفرف فى كل ربح ، والننى يستخدمها كدرع واحد » .

اتراه رمزا وضعه بيجين فى خدمة دبلوماسيته ؟ أم انها براعة رجل سياسى يعرف كيف يحكم شعبا مولعا بالتقاليد ، حتى وان كان لا ينمى هذه التقاليد على الإطلاق ؟ كتب يوسف لايبىد السحفى فى صحيفة معاريف التى رافق رئيس الوزراء فى تنقلاته فى رومانيا يقول : « فى هذه اللحظة المؤثرة فى معبد بوخارست من ليلة السبت ، وعندما بدأ كورال من الشباب نشيد « يرشاليم تسل راهاف » شوهدت الدموع تنساب على وجنتى بيجين واليهود يتهايمسون « انه يبكى » بينما راحت النساء يبكين معه ، وفى هذه اللحظة المشهودة فقط أدركنا أن مناحم بيجين هو أكثر رؤساء الوزراء الذين حكموا اسرائيل ايمانا باليهودية .

ومن قرارات مناحم بيجين التى تثير الجدل ، قرار يجدر بنا أن نتأمله حيث أنه يكشف عن طبيعة الرجل : « قبوم هاشواه » هو يوم الاحتفال بذكرى ضحايا المذبحة النازية : « أن يو » « ٩ آف » يوم معروف فى اسرائيل ولدى الطوائف اليهودية فى انحاء العالم بأنه يوم دمرت فيه جحافل جيش تيتوس الرومانى معبد القدس ولحرص بيجين على أن يخلد ذكرى تعذيب يهود أوروبا اقترح الاحتفال بذكرى هذين اليومين فى يوم واحد ، ليربط التاريخ اليهودى المعاصر ويشبته فى تراته القديم الذى يرجع الى الاف السنين .

أن بيجين هو بلا شك رجل الطقوس . واى احتفال فى نظره يقسم بالقداسة ، رأى لقاء يعتبر لقاء تاريخيا وكل نقاش له أهميته . « فلم يحدث أن تأثرت ابدا برجل مثلما تأثرت بجابوتنسكى » هذا ما قاله فى

ختم لقائه مع الرئيس كارتر كما صرح أمام الطائفة اليهودية في بودابست قائلا : « أننى لم أثار أبدا متلما تأثرت عند اعلان استقلال اسرائيل » .

أن حب عبارات التفخيم هذا يمكن بسهولة أن يبدو فعالا ، وربما يميل بيجين الى الأسلوب الدرامى . ولا يمكن أن يعتبر ذلك من قبيل التمثيل ، حيث يبدو الرجل صادقا مخلصا فى مشاعره وفى مقالاته .

أن مناحم بيجين رجل طقوس ورجل مبادئ ، وهو ينتمى الى جيل الساسة الذين ظهروا فى بداية هذا القرن . هذا الجيل الذى لم يعلن بعد أقوله . فمع صعود رايبين وبريز وآلون الذئاب الصغار فى حزب العمل ، الذين تغلب عليهم الروح العملية ، والذين تخلصوا من الآثار المذهبية التى تركها كبار السن فى الحزب - ساد الاعتقاد فى فترة من الفترات فى اسرائيل بأن الايديولوجيات قد انتهت . أن المجتمع الاسرائيلى مثل المجتمعات الاخرى فى انحاء العالم قد خلق طبقة جديدة من التكنوقراطيين لا يتحدثون الا قليلا وينجزون بسرعة ولا يبالون بشئ . وببدو أن عملية التطعيم قد فشلت بسبب السأم فقد لفظ الناخبون اسحاق رايبين واستدعوا على رأسهم من يعارضه فى الراى . فأحدهما من جيل الصابرا الجديد أما الآخر فيهودى (بالمفهوم التقليدى) وأحدهما عملى ، والآخر ابن مخلص لنهج ونظرية ومدرسة فكرية . وأحدهما من « الطليعة » ، والآخر ينتمى الى هذه الفئة من الساسة القدامى « الاباء » (الامر الذى يفسر - كما يقول بعض المحللين تصويت عدد كبير من الناخبين السفرديين الذين يميلون بقدر كبير - كما يقال - الى مفهوم الحاكم السياسى الابوى .

أن جيل الصابرا الذى طالما انتظر اللحظة التى يحكم فيها ، قد أثبت انه يعجز عن الامساك بزمام الدولة اذا لم يبحر بسفينة الحكم صوب هدف يراه على مدى النظر . فقد تولى اسحاق رايبين الحكم فى وقت عصيب فى بلد كان لايزال مهتزا من جراء حرب الفجران ، ويسعى لالتقاط انفاسه مرة أخرى ، ويبحث عن رجل جديد - ولم لا « رجل القدر » .

لقد انتهت فترة حكم رايبين الاعتراضية ويبدو أن التاريخ يضرب دائما ، موعدا آخر ولكن لا يتواعد أبدا مع نفس الرجل . أن انتصار بيجين هو أيضا فشل لاسرائيل - الصبار .

اسرائيل الجديدة

ان الذهاب الى مكان آخر يعد اثما لهذا
الجنس والفصيلة السرية الكبرى والرسالة
السامية لهذا الشعب ...

أن أى عبور يعد بالنسبة لهم مثل العبور
الشاق للصحراء فالمنازل الاكثر راحة وثباتا
تعد بالنسبة لهم بمثابة خيمة فى الصحراء .
الأمر الذى تولد عنه عذاب لا مثيل له
واقسى خصومات داخلية ثارت بين روحانية
وسياسية .

شارل بيچى

((شيبانبا))

من بن جوربون الى بيجين

قالوا أن هناك نقاطا مشتركة قليلة بين اسحاق رايبين ومناحم بيجين . وفي الواقع ، فان أقل المراقبين علما بالعمليات الغريبة للسياسة الاسرائيلية يمكن أن يلاحظ أن كل شيء يباعد بينهما : فأحدهما قائد عسكري سابق يحاول ادخال أساليب صارمة في عالم السياسة ، ولا يقسم الآخر يميننا سوى بالديمقراطية ويهتم أقصى اهتمام بحقوق كل فرد . أن كل شيء يباعد بينهما : المظهر والثقافة والأفكار السياسية والأسلوب . أن رايبين هو الصابرا . لقد ولد في البلاد ولذلك لم يكن يتسم بعيون يهود الشتات بيد أنه لا يتحلى أيضا بصفاتهم . ويصل بيجين الى الحكم محاطا بالأساطير فهو رجل « ثورة اسرائيل » الذي ناضل حتى من قبل اقامة الدولة . وهو رجل حنكته التجارب ، ولعله ليس في طليعة فريقه ولكنه يمثل من يمكن أن يطلق عليه لفظ « اليهودي الأب » ، وكأنه أشبه بجند عطوف ينحصر اهتمامه الوحيد في مصلحة العائلة . أنه - على أفضل تقدير - يشبهه بن جوربون وقد تخلص من المرارة أو على أسوأ تقدير يشبه ديجول ولكن في صورة يهودية . ولقد أخذ عن الأول حاسة الحس والتكهن وأحيانا لهجة التنبؤ وعن الثاني أخذ مجد تلك الأقليات التي عقدت العزم ذات يوم ، وهي صفر اليمين ولا يدفعها الا إيمانها وحده - على أن نحمل لواء الثورة .

على أنه لم يؤت عناد الولد العاق الذي تميز به بن جوربون ولا الكبرياء التي انقضى زمنها والتي عرفت عن ديجول . بل أنه متواضع لأقصى الحدود حتى ليبدى استعداده على عكس الاعتقاد السائد عنه بصفة عامة - الى الاصفاء طويلا لمعارضة . وعلى عكس ابا ايبان فإنه يجيد الانصاف الى الآخرين . فهو يعتقد أن هذا هو أقل قدر من اللباقة التي يتعين عليه أن يبديها لمحدثه . ورغم أن تواضعه خليك بأن يوصف بالتواضع اليهودي الا أنه لا يجعله يغفل قط عن الأهمية التاريخية للمهمة التي يضطلع بها ولا يتنافى تواضعه مع حماسه وطموحه من أجل شعبه : أو صموده الذي يسر على هديه الأمر الذي يتنافى بالنسبة لآخرين مع التسابق لجمع الثروات المادية أو أشباع رغبات الرفاهية البورجوازية . لقد كرس حياته كلها لتحقيق هدف كبير . فهو لا يريد السلطة لمجرد الرغبة في توليها . ومازال المسكن

المناضع ذو الحجرتين الذى يقطنه منذ ثلاثين عاما ، فى الطابق الارضى من احدى العمارات القديمة فى قلب تل أبيب - مفتوحا لاستقبال الجميع . بعد ظهر يوم السبت كما جرت العادة قبل أن يتولى السلطة ، وذلك لرغبته فى أن يكون باستمرار على اتصال مباشر بالشعب وعلى علم برغباته وآماله واحتياجاته .

ويقول بيجين : « لقد تربييت وأنا طفل صغير على أن ارضى بالقليل فى حياتى أن حب الأسرة اليهودية وضرورة احترام كل انسان هما النبعان اللذان نهلت منهما فى بيت والدى » .

من هنا كان هذا الأدب الجهم المبالغ فيه أحيانا - الذى يديه بيجين دائما تجاه خصومه السياسيين بل وتجاه أعدائه أيضا . ولكن أى أعداء قد يجيب بيجين على هذا السؤال متبعا أسلوب ديشيليو - الذى كثيرا ما يستشهد به - قائلا أنه ليس له من أعداء سوى أعداء دولة اسرائيل .

وهو فى غمرة نشاطه اليومى يجعل شغله الشاغل فكرة واحدة ثابتة ، يؤداهما أنه مستودع ارادة الشعب والطموح القومى فهو يعتبر نفسه رسولا يضغط برسالة من أجل خير شعبه وذلك ما يفسر تصريحه الذى يقول فيه عن نفسه أنه « أداة الخالق » ذلك أن نظرته للعالم هى أولا نظرية يهودية تقليدية فلا تنبأ يحدث فى الحياة الدنيا دون مشيئة الخالق وتنظيمه ونديبه . وهكذا فإن مهمته وقدره التاريخى نابضان أساسا من « ارادة الله » ان بيجين - حينما يتحدث يحتفظ فى ذهنه بأربعة آلاف عام من التاريخ اليهودى .

وهناك بعض النوادر التى تحدد ملامحه : من ذلك أن أحد زملائه البرلمانيين فى الكنيس ممن ظلوا لسنوات عديدة يجاورونه فى الجلسات يقول : أبدا لم أرى بيجين - حتى فى أشد الأيام قيظا - يحضر الجلسات العامة مرتديا قميصه فقط ولكنه يأتى دائما لابسا رباط عنق .

وذاث يوم بعد أن صار رئيسا للوزراء ، اذا بزوجه اليزا تنبهه الى أنه لم يتناول إفطاره بعد . . . فأجاب عليها مشيرا الى حرسه الخاص بقوله : « هل اهتممت يا عزيزتى بمعرفة ما اذا كان هؤلاء قد تناولوا افطارهم أم لا . اليسوا اخوتى ؟ » .

فى شهر سبتمبر سنة ١٩٧٧ وبينما كان حلف العلاقات الاسرائيلية الأمريكية يحتل مركز الصدارة فى أحداث الساعة ، سأل أحد صحفى

جريدة « معاريف » رئيس الوزراء عما اذا كان يمكنه الكشف عن مضمون رسالة بعث بها الى الرئيس كارتر . ويجيب بيجين بقوله : « ان اول تحذير يضعه دابى جبرشوم (هو استاذ فى القانون اليهودى ومشرع) هو انه لا يمكن الزواج بامراتين اما التحذير الثانى فهو انه لا يجب الاطلاع على رسالة ليست موجهة اليك » .

ومن عادة بيجين ان يقول - حينما لا يتوصل بعد مناقشات طويلة مع خصومه السياسيين الى « طريقة تعايش » . . « فلنتفق على اننا غير متفقين ثم نناقش بادب وصبر واحترام متبادل » . فى حين كان « النبى المسلح » بن جوريون - حينما كان يتضح له صعوبة الاتفاق مع خصومه او مع رفاق الطريق - يتخذ القرار بمفرده بطريقة مشابهة تماما لطريقة ديجول او يصفق الباب خلفه ويختفى فى كيبوتزه بسيدي بوكر الذى كان يعد بالنسبة له مثل قرية كولومبى لين وزحليز (مسقط رأس ديجول) .

ولا يصدر مثل هذا التصرف عن بيجين وهى نقطة من نقاط الاختلاف بينه وبين بن جوريون بيد ان بيجين يعد - مثله فى ذلك مثل رئيس حكومة اسرائيل السابق - « مفتون بالصهيونية وقد كون نفسه » ، مثل بن جوريون - فكرة معينة عن دولة اسرائيل وشعبها . وكان بن جوريون يقول « عم سيجولا » ، ذلك التعبير الذى يمكن ترجمته الى « شعب الصفوة » ولقد راي كل منهما انه ليس هناك ضرورة لان يكون المرء مجسونا حتى يصبح صهيونيا ولكن ذلك يساعد كثيرا . وبهتم بن جوريون بالمصلحة العامة وحدها ، ان الشعب يستكين حين لا يكون امامه مثل أعلى كبير ، ويجب النظر الى بعيد واعداد الامة لتحديد قوائها وروادها .

ونمة نظرة روحانية واحدة للامور تجمع بينهما رغم انها بالنسبة لبن جوريون نظرة روحانية تلقائية على حين انها فى حالة بيجين نظرة دينية وتقاييده لليهودية كما تجمع بين الرجلين نفس فلسفة العمل التى درج بن جوريون على تلخيصها بما يلى : « ان مستقبلنا لا يتوقف على ما بقوله غير اليهود بل على ما يضعه - اليهود انفسهم » ويرى كل منهما - كما يقول فاوست بطل جوته - « فى البداية كان هناك العمل ، حتى واذا كان بيجين يرى ان الكلمة هى صورة من صور العمل » .

ولقد جعل كل من بن جوريون وبيجين من دراسة التوراة مسألة قومية وكان بن جوريون يقول : « انى اعتبر يوشوع هو بطل التوراة ، انه لم يكن مجرد قائد عسكري بل كان المرشد لانه توصل الى توحيد قبائل

اسرائيل . وربما يفضل بيجين موسى رجل التاريخ ابن الشعب الذي يمثل التواضع نفسه على يوشوع القائد العسكري .

ان الخيارات السياسية ليست هي الشيء الوحيد الذي يختلف فيه دافيد بن جوريون عن مناحم بيجين لقد كان الأول عبيدا بقدر ما يتصف الثاني بالصبر ، وكانت ثوراه عنيفة وغضبة يستمر لفترة طويلة ويبدو أشبه بحيوان جريح .

وقال عنه ميشيل بارزوهار وهو أفضل من كتبوا سيرته أن بن جوريون كان يعد في آخر أيام حياته بمثابة « كهل سريع الغضب ، منتقم وحقوق » وليس هناك شيء من ذلك لدى بيجين الذي بتسامح بسرعة لأن اليهودية تفرض عليه ذلك ، والذي لا يستطيع أن يضم الحقد لأن عقيدته الأولى قبل حب أرض اسرائيل - هي حب الشعب .

« يجب تجديد معركتنا للعودة الى صهيون » . يعتقد بيجين في الواقع ان الصهيونية لم تقل كلمتها الاخيرة مع أن ذلك يعد أمرا حيويا بالفعل أكثر من أي وقت مضى ، وحينما نرى تطور الوضع بالنسبة لليهود في الاتحاد السوفيتي وفي بعض الدول العربية أو دول أخرى في أمريكا اللاتينية وطوال ٢٦ عاما قضاها زعيما للمعارضة ، كان يختتم كلمته في كل مرة يحدث فيها الى أي منظمة الشباب اليهودي ، في الشتات ببناء حماس هو : « لقد حان الوقت للعودة الى البيت » . وفي حديث طويل كان قد ادلى به منذ عدة سنوات للاذاعة الفرنسية ، قال ردا على سؤال خاص بالرسالة التي يرغب في توجيهها الى الشباب اليهودي في فرنسا : « انني اعتقد انه يتعين على هؤلاء الشباب ان يعكفوا أولا على دراسة تاريخ ولغة شعبهم حتى يدركوا عظمة وبطولة اسرائيل ثم ، عليهم أن يفكروا أيضا في العودة ليشاركوا في إعادة بناء أرض اجدادهم والنهوض بها . أن بيت آبائهم ينتظرهم » .

ويعتقد مناحم بيجين انه ليس هناك عقيدة تفوق على الصهيونية بل وانها مازالت الايديولوجية الوحيدة والحركة الوحيدة التي لم تخن اهدافها « يتعين علينا أن نعود عودة حقيقية الى الصهيونية ، بعد عودتنا الى أرض صهيون » . أن ما يريده ليس هو صهيونية الخوف ، ولكن حركة التمجيد والحماس . وهو يدرك تماما أن الصهيونية قد اضطرت بموجهتها للحقائق - الى مراعاة الممكن بيد انه يعمل للعودة الى الحلم : فهو يريد أن يحل الانبياء والصالحون محل الاداريين فهل اختفت صهيونية الرواد ؟ اذن

يتعين مساعدة كل هؤلاء الذين يرغبون في أحيائها أمثال « شباب كتلة الإيمان الرأعيين » . ويعتقد بيجين مثل بن جوريون - أن الحركة الوطنية اليهودية لم تحقق حتى الآن سوى هدف واحد من أهدافها هو - العمل على أن تكون هناك أغلبية يهودية في إسرائيل . ويتبقى الآن الهدف الآخر الذي لا يقل أهمية عن الهدف الأول وهو أن يقيم أغلبية اليهود على هذه الأرض .

فهل يعد بيجين متشائماً ؟ نعم حينما ينطلق - في تأملاته مسترجعاً أحداث التاريخ فيحدث عن هذا الجيل على اعتبار أنه جيل الحروب والطرد والاضطهاد والبؤس والصعوبات والاحلام المجهضة « وحاولان » أى إبادة ثلث الشعب اليهودى ولكن سرعان ما يعرض هذا التشاؤم قائلاً « اننا اليوم في بداية تحررنا » وإذا كان بيجين يستخدم العبارة الأرامية « انهالتا ديجيولا » في حديثه عن هذا الموضوع ، فإنه يفعل ذلك متعمداً لبوضيح أنه يلمح الى التحرير الذى بشر به انبياء اسرائيل وحلله فلاسفتها وانتظره الشعب طوال عشرين قرناً وليس الى أى تحرير عادى لا يستند الا على القوة الوحشية . ويقول بيجين في هذا الشأن « أننى لم أقبل على الإطلاق المفهوم المشار اليه في التوراة :

الحياة بالسيف اننا هنا بقوة الحق فانى أؤمن بقوة الحق وليس بحق القوة .

ويضيف قائلاً : « لم يكن لنا دولة طوال ١٨٧٨ عام ، ولكن كان لنا دائماً وطن . ولقد أحببناه عن بعد وكنا نشعر بالحنين اليه . وصلينا لتكون أرضه خصبة دائماً . أن الوطن هو البلد الذى ولدت فيه أو ولد فيه أبائك أو أجدادك . ولقد كانت العبارة التى قالها يوسف اجنون الحناز على جائزة نوبل في الادب بسيطة ولكن عميقة : « لقد ولدت في إحدى مدن الشتات بسبب كارثة تاريخية - هى هدم امبراطور روما للقدس . بيد أننى كنت أعتبر نفسى دائماً في أعماق أعماقى ، وكأننى ولدت بالفعل في القدس . . وعلى أية حال فلقد ولدنا جميعاً في القدس » .

ويعتقد بيجين تماماً - مثل الشعاع الاسرائيلى الآخر بودى تسفى جرينبرج الذى يتغنى بروح اسرائيل الممزقة في نفس الوقت بتطلعها الى الوحدة . انه « سوف يأتى اليوم الذى تلتئم فيه كل الممزقات التى أحدثها تيتوس » .

اذن فهي صهيونية صافية ، دون خوف أو لوم ، موجهة تماما نحو المستقبل دون أن تنفصل مع ذلك عن جذورها .. وهنا أيضا يكمن أحد الاختلافات التي تفرق بين بيجين وبعض أسلافه . ترى ما هو هدف الصهيونية ؟ بالنسبة لمناحم بيجين تعد الاجابة واضحة : « عند مدخل متحف جابوتنسكى في تل أبيب ، توجد هذه العبارة لماكس نوردو « أن أمنية روى هي رؤية شعب اسرائيل في ارتيز اسرائيل . بحمل على التقدمية الحقيقية ويكون مثالا نحتذى به الأمم وينشر بينها فكرة الاخوة » .

وفي حين نادى بعض المفكرين الصهيونيين - الذين يميلون أساسا الى اليسار - بالانفصال تماما عن الماضي التاريخي للشعوب ، كان مناخم بيجين وأصدقائه يعتبرون أن الصهيونية لا يجب أن تقيس بمقياس الخسائر والارباح كل ما اكتسبه الشعب اليهودي في تشرته ونفيه وحباته في الاحياء المنزلة (الجيتو) .

أن مفهوم بيجين عن اليهودية يعد مفهوما تاريخيا . أن تجاهل بعض (الصابرا) للتاريخ الحديث للشعب اليهودي يثير ثأرته : « أن ذلك نوع من التخلف » .

ويقول بيجين مرارا وتكرارا « يتعين على الشباب اليهودي في الشتات دراسة اللغة العبرية بل والتحدث بها . كنت قد قمت منذ عدة سنوات مضت بزيارة لجامعة كاليفورنيا وطلبت من الطلبة اليهود دراسة اللغة العبرية والتحدث بها . وسألتني إحدى الطالبات : « ولكننا سوف نكون مختلفين »

« وما الضرر في أن نصبح مختلفين ؟

— أن الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية لا يضرها اليوم أن تكون مختلفة .

أن التطور التاريخي للولايات المتحدة يعطى في اتجاه المثل الاعلى العنصرى . أن كل شخص هناك مختلف . لذلك يتعين على الشباب اليهودي أن يتكلم اللغة العبرية . وسيكون ذلك بالنسبة له جسرا عظيما سوف يسمح له في يوم من الأيام بأن يلحق بنا على أرض اجدادنا .

« انظروا الى الدرس الجميل الذى يعطينا اياه الأبطال اليهود في روسيا : أنهم يناضلون من أجل حقوق اليهود هناك أنهم لا يطالبون باقامة مسرح باللغة العبرية ولكن بحق دراسة وتعلم اللغة العبرية والنوارة .

« أما في الغرب ، فليس من الضروري الكفاح للحصول على هذه الحقوق
 أننا نحتاج الى الإرادة فقط . ويجب على الشعب اليهودي تحريك كل هذه
 الطاقات لصالح الشباب سواء كانوا في الجامعات أو في أي مكان آخر .
 وحينئذ يتم تأسيس الأخوة اليهودية الحقيقية . على اليهود حتى وأن لم
 يصلوا بعد الى إسرائيل - ان يتكلموا اللغة العبرية في بيوتهم وفي الشارع .

« أننا نعيش اليوم تحت لواء انتصار الحركة الوطنية اليهودية أي
 الصهيونية التي اعتقد أننا لا يمكن أن نجد لها نظيراً في تاريخ حركات التحرير
 الأخرى ويتمثل تناقض جيلنا في أننا نشير بأنفسنا - في هذه الأيام التي
 حققنا فيها الانجازات والنصر والرفعة - الشك والتساؤل عما اذا كانت
 الصهيونية على حق .

ولا يشك رئيس الوزراء أدنى شك في عدالة قضيته . وهو يعتقد فقط
 أنه يتعين تكذيب هؤلاء الذين يرددون أن الصهيونية ليس لها رسالة تؤديها
 بالنسبة لنوعية الحياة . ومن المؤكد أن الاخلاق العامة قد تعرضت طوال
 هذه السنوات الأخيرة في إسرائيل لنكسة . ويعترف بيجين بذلك قائلاً :
 « لقد انتشر نوع من العنف في حياتنا الاجتماعية مؤخراً . ولقد أصبح
 البعض ذئاباً وظهرت الرغبة في الإيذاء والهدم والدم . واختفت بعض قواعد
 الأدب ولم يعد حب الإنسان الذي يوصينا به قانون إسرائيل موجوداً
 تقريباً . ولم يعد هناك اعتبار للمرأة أو احترام للشيوخ . ويواصل بيجين
 حديثه قائلاً :

(لقد مر زمن على هذا البلد لم يكن فيه أحد يفلق باب بيته . كانت
 الأبواب تظل مفتوحة) ولم يحدث على الإطلاق أن دخل أحد واستولى على
 مالا يملكه وكان الرجال يقفون صفاً ليركبوا المواصلات ولم يكن أحد يحاول
 اللجوء الى الفس . ومازلت أتذكر الأيام التي كنا نفخر فيها نحن اليهود
 بأننا مهذبون . وعند دخول إحدى النساء كنا نقف لها ونعطيها مكاناً .
 لقد كانت المؤسسة اليهودية حينئذ جميلة وكبيرة . ومازالت في الامكان .
 اليوم أيضاً التصرف طبقاً لهذه الآداب . ويجب أن يبدأ كل فرد بأعطاء
 المثل على ذلك » .

ويعتقد مناخم بيجين أن الاسرائيلي يجب أن يستعيد صفات اليهودي
 التقليدي . أن يعاود الاتصال بأصول الثقافة اليهودية ، ودفع الشباب
 الى أن يدركوا أن اليهودية عظيمة نظراً لأنها إحدى المكونات الأساسية
 للحضارة العالمية . . ان هذا الرجل الذي يملؤه الحنين الى الأصل يتجه

في الوقت نفسه نحو المستقبل . ويدافع بيجين عن مواقف الشجاعة والأصالة دون أن يلفظ شيئا من اليهودية الأصلية وهو يردد أحيانا بكبرياء هذه العبارة لشارل بيجي « يستطيع اليهودي أن يرجع في تاريخه من جيل الى جيل ، ويستطيع أن يرجع الى قرون مضت ، وسيجد دائما شخصا يعرف القراءة بل وليس ذلك فقط ، ولكن القراءة اليهود ، وليس قراءة كتاب ولكن قراءة « الكتاب » .

وهذا يعنى قراءة لكلمة الله . . . اما الكاثوليكي والفلاح والفرنسي اذا ما رجعوا الى أصلهم فانهم يصطدمون ايا كان الجانب الذي يرجعون اليه بعد الاب او بعد الأم مباشرة ، بجهة مربعة من الاميين » .

الحديث الجديد :

أن يكون الرجل الذي يتولى حكومة اسرائيل منذ شهر يونيو ١٩٧٧ مختلفا تمام الاختلاف عن كل هؤلاء الذين تولوها منذ ثلاثين عاما ، ذلك بعد امرا بديها يؤكد طبيعة العلاقات القائمة من الآن فصاعدا ، بين اسرائيل ويهود الشتات . ولقد كان هؤلاء بشعرون أحيانا بأنهم يتحدثون لغة أخرى غير لغة الصابرا الذين كانوا يشعرون مع ذلك بأنهم متضامنون معهم تماما . والواقع أن اليهودي لم يكن يتعرف على نفسه دائما في المرأة التي كان يقدمها له الشباب الاسرائيلي . لقد كانوا يبدون له بكل تأكيد خاليين من العقد والاوهام والاستفهامات حول النفس التي كان آباؤهم يهانون منها في جو عدائي قائم على التميز ، ولكنهم مجردون أيضا من فضول الآباء المضطرب والمثمر . « على حد تعبير المأسوف عليه جورج فريدمان في كتابه « هل هي نهاية الشعب اليهودي » ؟ . وكان الشباب الاسرائيلي نفسه يعرب عن نوع من الرفض ليؤكد يهوديته في نفس الوقت الذي كان ينأى فيه نفسه عن الثقافة التقليدية وكان « الصابرا » ينظر الى يهود الشتات نظرة احتقار في حين كان يعامل هذا الصابرا في بعض أوساط اليهودية التقليدية في أنحاء العالم على أساس أنه « أجنبي يتحدث اللغة العبرية » .

وكانت لغة الصابرا « انعكاسا لهذا التمزق . . وكانت تختلف عن اللغة التقليدية وبصفة خاصة عن أسلوب التوراة ان لغة الصابرا تستبعد كل العبارات التي ادخلها الحاخامات على لغة التداول اليومية ولا تستخدم الاوامر والعبارات الموجهة الى السماء مثل عبارة « أن شاء الله » . وتأنف من العبارات الأرامية التي كانت تستخدم في عهد التلمود ولكنها استمرت

حتى الآن نتيجة للتيار التقليدي لليهودية وكانت لغة الصابرا تتسم بالعلمانية وعدم التقديس ولم تعد لغتهم العبرية هي لغة التقديس ولكن لغة الحديث اليومي والحوار العام .

وهذه هي الثورة الأولى التي حققها مناحم بيجين بمجرد توليه السلطة . لقد اكتشف الشعب لغة أخرى هي في الواقع اللغة التي كان يتحدث بها اليهود طوال الوقت في منفاهم . أنها لغة التوراة والأنبياء وأساسا لغة النمود وهي لغة مهذبة الى اقصى درجات التهذيب : تحترم الله والانسان كل الاحترام ، كما أنها لغة غنية ينساب فيها أربعة آلاف عام من التاريخ اليهودي . وتتضمن عبارات الانبياء وأمثال الحاخامات المراجع الدينية وآيات من التوراة وقصصا خرافية ، وأمثال ، وأقوال الحكماء . وهي لغة مرموزة وتلميحية وجدلية لا يستطيع فهمها تماما الا الذين تعمقوا في دراسة الثقافة اليهودية التقليدية . وهذه هي اللغة المكونة من علامات مقدسة التي كرمها أعضاء هيئة التحكيم لمنح جائزة نوبل في شخص شمويل يوسف أجنون سنة ١٩٦٦ .

وهي لا تعد مجرد لغة فقط ، ولكنها رؤية للعالم وادراك للحياة بأخذ الله فيها جانبا أخاذا في كل لحظة : ان شاء الله لا سمح الله أنها أحد المشاكل التي سوف يحلها المسيح . . انها حوار مع السماء مع الاصول ، مع التاريخ . وعلى عكس اللغة العبرية ببعض أفراد الصابرا ، فهي اللغة التي كان يتحدث بها الكبار وأساتذة القانون وزارع الكروم راشي ، والطبيب معموليد الذي يعرف العربية .

ويقول بيجين « على حد تعبير حكائنا » . . ثم ينطق بكلمات ملتبهة أو أمثال من التوراة أو عبارات من الواقع . ولا يلجأ بيجين الى لغة سلفه الا اذا لم تسعفه اللغة العبرية التقليدية في التعبير عن فكرته . ويضيف حينئذ وكأنه يعتذر : « . . . كما يقول أبناؤنا من الصابرا اليوم . وهو لا يطيق ، في الواقع : أن يحتل مثل هذا العدد من العبارات الانجليزية أو الغريبة المقدسة . لماذا يستخدم راين كلمة أجنبية في حديثه عن الحنين الذي يشعر به المجتمع الاسرائيلي تجاه سياسة هنري كيسنجر » على حين كان يوسعه استخدام الكلمة العبرية المقابلة .

هل يعد ذلك وطنية متطرفة تصل الى حدود اللغة اليومية ؟ ربما يتعلق الأمر أساسا بموقف عاشق للغة العبرية التي لا تعاني من مثل هذه الخيانات . ويدفع صائغ الكلمة حبه للغة العبرية الى حد اختلاق العبارات

التي يحتاجها ، مضيفا اليها عند الضرورة الكلمة الاجنبية ولكن بصورة عرضية .

وكان بيجين يكتب على مدى سبع سنوات (من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٧) مقالا مرة كل اسبوعين في صحيفة « معاريف » الواسعة الانتشار يتحدث فيه عن نظرياته السياسية وأفكاره الراهنة . ان لغته جميلة وشاملة وكلمته محددة . وهو لا يخاطب ذكاء القارئ فقط ولكن أيضا قلبه واحساسه . ويعمل على اثارة شعوره ولكن دون المساس بالواقع أو تحريف الحقيقة . كما يذكر الماضي ليستلهم منه أو ليأخذ من مصادره . وبشير بيجين في كتابته الى المصادر التي استقى منها المراجع التاريخية والأقوال الماثورة . فمن هنا جاء هذا المثل وفي ذلك العصر عاش ذلك المؤرخ الذي اشار اليه . وكثيرا ما يبتهل الى السماء مستخدما عبارة من التوراة لا تترجم على الاطلاق ، تتألف من كلمتين معناها : « اشهدى أيتها السموات » ويخاطب بيجين القارئ مباشرة على غرار أسلوب أدب التلمود . وبين العبارة الحديثة والأسلوب الذي يرجع تاريخه الى آلاف السنين ، يقع اختياره على الثاني حتى وان كان من أصل آرامي . يصاحبه طبقا للتقاليد - بعبارة « فليبارك الله ذكره » ، واذا كان الأمر خاصا برجل عادل أو رجل صالح فان العبارة المستخدمة تكون « فليبارك الله ذكرى الملك العادل » . واذا ما استدعى الأمر الإشارة بعد ذلك مباشرة الى شخص مازال على قيد الحياة ، فان يضيف بانتظام هذه العبارة « . مع الاختلاف مع الشخص سالف الذكر ، ليطل الله في عمره » وذلك حتى وان كان من أيد خصومه السياسيين مثل جولدا مائير أو اسحاق رابين .

الحنان وحب الغير والاهتمام والرعاية للجميع هذه هي سمات هذه العبارات التي اتخذتها اليهودية التقليدية - منذ قرون طويلة - عقيدة لها وقاعدة لحياتها .

واذا ما اضطر بيجين الى استخدام عبارة باللهجة اليهودية الالمانية التي لا يفهمها سوى اليهود الاشكنازيين ، فانه يعنى مباشرة بترجمتها الى اللغة العبرية ، حرصا على الا يعطى مثلما كانت عادة جولدا أو ليفى أشكول ، انطبعا بنبل اليهود المولودين في اسرائيل .

وقد قال الصحفي ناحوم بارنيه في هذا الشأن : « لقد استحوذ أسلوب بليغ جديد على اسرائيل ويهود الشتات منذ أن تولى حزب ليكود السلطة . ان بيجين بتصرفاته وبلاغته وأسلوبه - هو بالضبط ما اتفق على تسميته

« الشتمات » . فهو يعبى كل ما هو في متناول يده ابتداء من رب اسرائيل الى أوشوينز ، مروراً بالانبياء ابراهيم واسحاق ويعقوب . لقد انتهى أسلوب « الصابرا » نهاية مؤكدة في عالم السياسة .

وفي الواقع ، يستطيع المواطنون الاسرائيليون أن يكرروا ما كان يقوله جزافية خلافاً عن ليون يلوم في مجلس النواب : « لأول مرة » يتولى قيادتنا رجل ماهر من رجال التلمود » .

العقيدة :

وجه أعضاء حزب العمل اللوم الى مناحم بيجين - بعد مائة وثمانين يوماً من توليه منصب رئيس الوزراء - لأنه يرغب في قيادة الاسرائيليين « بالأحلام » (كما كان شاتويريان ينصح بقيادة الفرنسيين) . . وجاء رد بيجين عليهم خالياً من العبارات الحادة التي كان يستخدمها وهو زعيم المعارضة اما اليوم وهو في موقع المسؤولية ، فإنه يجيب بهدوء ولكن باصرار « ان امتداد فترة تولي السلطة تؤدي الى الفساد . وتتمثل الديمقراطية السليمة في نظام الحكم الذي يجري فيه تغيير السلطة بهدوء ومن قبل ، كتبت افول لنفسى مواسيا اننا كنا طوال هذه السنوات نتقاسم المهمة مع أحزاب الأغلبية لهم السلطة ولنا الجمال والنقاء . أما اليوم ، فيتعين على أعضاء حزب العمل وشركائهم في حزب المابام أن يدركوا أننا قد منحناهم الاجازة التي يحتاجون اليها فليعملوا اليوم من خلال المعارضة » .

ولم يخف بيجين على الإطلاق انه لا يحب ما يطلق عليه « الزامير الاشتراكية » وأيضاً التفاخر اليسارى . « فهو يجد فيه نوعاً من الفساد الأخلاقى . وبشير الأسلوب الماركسى - مهما تكن المدرسة التي ينتمى اليها - سبق هذا الرجل نادراً ما رأيناه يحتد أو يشور . حيث يعتقد أن الاشتراكية - لم تؤد سوى الى « انقسام الشعب » في حين أن حلمه الخفى مازال « العمل دائماً على توحيد القلوب » .

ويقول مناحم بيجين « ما زالت الشيوعية الأوروبية - سواء تعلق الأمر باتجاه مارشيه أو باتجاه برانجوير - تبسط نفوذها على الأجيال الجديدة وخاصة على الشباب اليهودى . ولقد تأكدت من هذا الشعور خلال لقائين مثيرين للاهتمام عقدتهما مع شباننا في ميلانو بإيطاليا ويتعين على المرء أن يتحلى بصبر كبير في أى مناقشة تدور بين رجل عجوز مثلى والشباب . ان الشباب هذه الأيام لا يراعون الاختيار في كلماتهم . فلديهم القدرة التامة

على أن يقولوا الأشياء السيئة والفظة التي يعلمها لهم أساتذتهم . ولكنني أقول بأننا لا يجب أن نياس على الإطلاق . ولا حتى من هؤلاء الشباب .

ولقد لوحث احدى الشابات ، خلال هذا الاجتماع ، بقبضة يدها تحت أنفي ، ولم يكن يبدو على مظهرها أنها من البروليتاريا الجائعة . بل على العكس كانت في حاجة الى أن تصوم صوما عنيفا وطويلا . فالواقع أن الفرنسي مارشيه الذي لعن تقليد رفع قبضة اليد اليسرى لم يكن له تأثير عليها . قبضة العنف والانتقام . هذا هو ما توعدنا به جميعا ، بما في ذلك أهلها وهم قطعاً من البرجوازيين الطبيعيين .

وقد جرى ذلك بين جدران المدرسة اليهودية الشهيرة في ميلانو أمام ثلاثمائة او اربعمائة طالب كان من بينهم خمسون من الشباب متأثرين بتعاليم حزب المابام والشيوعية الأوروبية ، حيث اختلط كل شيء في أذهانهم مما أدى الى خلق نوع من البلبلة .

ومثل هؤلاء الشباب هم الذين ينطبق عليهم ما قاله حكماؤنا بأنه لا قيمة للدراسة التي يصاحبها آداب السلوك .

أما آراؤه السياسية بالنسبة لليسار والشيوعية والاشتراكية والثورة القومية ، فقد سبق أن عرضها علينا مناحم بيجين منذ عدة سنوات مضت ، في تل أبيب ، عندما كان مجرد زعيم للمعارضة . ويقول بيجين :

« لقد أعلن فيدل كاسترو ، منذ فترة من الوقت ، أن النظام الديمقراطي قد فشل ، ولم يعد هناك ضرورة لأجراء انتخابات ، وليس هناك ما يبرر وجود صحافة حرة . وإذا كان هذا التصريح الثلاثي قد صدر في مدريد ، لكان الفرد محققاً في تفسيره على أنه تنبؤ أو إعلان عن الفاشية الإسبانية . أما اذا كان قد صدر في روما لقليل أنها الفاشية الإيطالية الجديدة تنهض من رقدتها . ولكن من المعروف أن فيدل كاسترو ماركسي لينيني . فإذا قام بالقضاء على أساس الحرية أو عارضها فلا يحتاج أحد . بل ان صحافة الدول الديمقراطية لا تنطق حرفاً واحداً » .

ويرجع أصل هذا التفهم الكبير الى الموقف الذي اتخذ . منذ القرن الثامن عشر ، قيل في برلمان الثورة الفرنسية - وأصبح مقبولا منذ ذلك الوقت - أن اليمين محافظ واليسار تقدمي وبكل الغرور يعتبر الماركسيون بعد البيان الشيوعي لماركس وانجلز - أنفسهم تقدميين علمانيين وفي بداية القرن العشرين ، وبعد الثورة البولشفية ، قال الشيوعيون أنهم هم المشلون

الوحيدون اليسار والتقدم . أما اليوم فان الصينيين اتباع ماوهم الذين يؤيدون هذا الادعاء .

« وهكذا اعتاد الناس طوال حوالى مائة وثمانين عاما ، هذه الفكرة بأن هؤلاء الناس يمثلون اليسار والتقدم حتى وان كانوا يقضون على الديمقراطية وبحلولن الأحزاب السياسية ويمنعون صدور الصحف - على طريقة المنظمات القماشية .

ومازال هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أن اليسار هو التقدم . ومع ذلك ، فان رجالا من الذين ينتمون الى اليمين - كانوا مصدرا لثورات أدت الى تطوير الانسانية وابتكروا أنظمة حققت رفاهية وحرية الانسان فهل نذكر أسماء ؟ انهم لينكولن وديزرائيلى وهارتزل وماكس جوردان وجابوتنسكى وروزفلت وتشرشل وديجول . وعلى أية حال ألم يكن هناك حتى من قبل الثورة الفرنسية - رجل مثل جفرسون هم فى الواقع رجال تقدميون ؟ ومع ذلك فانهم لم يكونوا ينتمون على الإطلاق الى اليسار .

« ولكن ما الذى يحدث ، فى مقابل ذلك ، فى المعسكر الآخر ، فى اليسار؟ انه لا يتقدم ، بل على العكس يتراجع . وهو لا يسهل اكتساب حريات جديدة بل يقضى على الموجود منها . ولا يرقى بالديمقراطية بل على العكس يطأها بأقدامه . ان الشيوعية الروسية مازالت تتحدث بصوت عال وقوى باسم التقدمية ولكنها فى الواقع تحمل فى طياتها الرجعية والظلام كما تنكر القيم الانسانية » .

ومن البديهي تماما أن ماوتسى تونج قد صنع الكثير للملايين من الصينيين ولكن نظام حكمه كان شموليا . . ويتضمن كتابه الأحمر الصغير أشياء طيبة هى ثمرة تجربته الفنية التى اكتسبها خلال حرب ثورية ، ولكن من الصعب أن نجد فيه أفكارا عميقة .

« ان كلمة ثورة فيها شئ غريب يجذب الانتباه ولقد طابق اليهود أساسا بينها وبين النقد الانسانى . ومع ذلك ، هناك ثورات ترجع بالانسان الى الوراء . فماذا حدث للانسان فيما يتعلق بحقوقه الطبيعية منذ الثورة الفرنسية وحتى أيامنا ؟ فى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، كان سجن الباستيل يضم سبعة مسجونين فقط . وكان أربعة منهم من بينهم المسمى بوجاد من المزورين الذين أدينوا . وقد أفرج عنهم رجال الثورة . . وتم الاستيلاء على سجن الباستيل وهدمه . لقد كان رمزا لنظام الحكم السابق الكريه وللأوامر الاستبدادية .

وفي عهد ريشيليون ، كان يتم الزج بالرجال في السجن بناء على أوامر الملك ودون محاكمة . وكان هدف الثورة وضع حد لهذه الاعتقالات التعسفية . ولا تمحو الواقعة المنمثلة في ان سجن الباستيل لم يكن في تلك الفترة ، سوى سبعة من البؤساء فقط ، أى شيء من الهجانة الرمزية والهام للعمل الثوري . وبعد يوم ١٤ يوليو ، الذي كان يوم عيد بالنسبة لفرنسا وللإنسانية بصفة عامة ، جاء يوم ٣ نوفمبر ١٧٨٩ وهو تاريخ بدء تنفيذ اعلان حقوق الانسان والمواطن . وتنص الفقرة الرابعة من هذا الاعلان على أنه لا يمكن اتهام أو سجن أو القبض على أى شخص الا وفقا للشروط المنصوص عليها في القانون . وقد تم اعداد البنود الستة عشر الأخرى لهذا الاعلان التاريخي بحيث تضمن للانسان - بصفته انسانا - حرياته الأساسية وقد كان ذلك تقدما حقيقيا .

» فما الذي حدث منذ مائة وثلاثة وثمانين عاما وقعت خلالها ثورات أخرى ، كبيرة فلننظر الى العالم من اقاصه الى اقاصه ، من موسكو الى هافانا ، ومن بكين الى تيرانا ، ومن صوفيا الى براج . ما الذي نراه فيه ؟ لقد عاد أكثر من نصف الإنسانية الى نظام الاوامر الاستبدادية ، وذلك بالإضافة الى الديكتاتوريات العسكرية المختلفة .

» لقد حلت ملايين من أبراج الحراسة ، فوق ومن حول ملايين الرجال الذين راحوا ضحية الديكتاتوريات الجديدة ، محل أبراج سجن الباستيل .

» ولقد وصفت الثورة الفرنسية بأنها ثورة بورجوازية ولم ينكر ماركس أو إنجلز أو بلاحنوف أو لينين أنها ولدت التقدم . أما هم فقد وعدوا بالقيام بثورة بروليتارية جديدة سوف تحقق لنا تقدما أفضل خاصة القضاء على الدولة . ولكن الذي حدث بالفعل هو بالضبط عكس ما وعدوا به فقد عانت الإنسانية كثيرا بسبب هذه الثورات . وعادت شعوب كثيرة الى الوضع الذي كان سائدا مثل الثورة الفرنسية . وبالطبع فان ذلك يعد عودة الى الوراء . وهو ما يمكن أن نطلق عليه لفظ الانتكاسة بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

» هل أنا شخص وطني ؟ لقد قال هرتزل يجب التفريق بين الوطنية الابجائية التي تنبع من حب الآخرين والوطنية السلبية التي تحركها الكراهية . وبالعبارة فان الوطنية تعنى ببساطة حب شعب ومحبة وطن . أما الوطنية في مفهومها السلبي فانها تعنى كراهية الأجنبى واضطهاد الاقليات » .

« وائنى أقترح أن يطلقوا علينا اسم أنصار وحدة أرض اسرائيل بدلا من اسم الوطنية » .

ولا يفهم مناحم بيجين لماذا ينصرف الاشتراكيون بمثل هذه الغفظة تجاه الذين لا ينتمون اليهم . ولماذا كان ، أساسا ، اسم استاذة الذى يحتذى به فى طريقة التفكير - زيف جابوتنسكى الا يذكر على الإطلاق تقريبا حيث كان محكوما عليه بما يشبه التحريم الدينى فى أوساط حزب العمل وكان مجرد ذكر هذا الاسم من شأنه أن يدنس من ينطق به . ويقول مناحم بيجين فى كتابه « حياتى » : « وهكذا فان جولدا مائير تتحدث عن الاتفاق الذى أبرم فى سنة ١٩٣٤ بين بن جوريون وجابوتنسكى ولكنها لا تذكر سوى اسم رئيس حكومة اسرائيل السابق . فكيف يمكن أن نتحدث بلغة اليسار وان نعيش بأسلوب اليمين ؟ » .

ومن المسلم به أن علاقات مناحم بيجين مع حزب المابام الاشتراكى الماركسى تعد أصعب من ذى قبل . ويرجع ذلك الى أن بيجين لا يفهم تماما كيف يمكن أن يكون المرء يهوديا وماركسيا فى نفس الوقت . وهكذا فان عدم التوافق فى الطباع بين المسئولين فى ليكود والمسئولين فى المابام يعد أمرا دائما . وهو تنافر فى المبادئ والفلسفة السياسية والأهداف والقيم والأساليب . وفى الواقع ، لا يتفق ليكود والمابام الا على القليل فى النظرية السياسية .

ولقد صرح متحدث باسم حزب المابام فى أول مرة ينشأ فيها الكنيست الاسرائيلى فى الخمسينات - وكان ستالين مازال على قيد الحياة بقوله أن الاتحاد السوفيتى هو وطننا الثانى » .

وبروى بيجين قائلا : « ولقد طلبت منه حينذاك أن يتذكر أن كلمة « وطن » بالعبرية غير قابلة للجمع . فلا يمكن أن يكون للمرء الا وطن واحد كما لا يمكن أن يكون له الا أم واحدة » .

كما أن ما يأخذه بيجين ورفاقه على فلاسفة المابام هو أمر أخطر من ذلك بكثير حيث يتعلق بالقيم التى ترسيها كل أيديولوجية : ويقول بيجين : « لقد ناضل لليهود - طوال تاريخنا - من أجل إقامة معبد لقد قدرت أيديولوجية الكيبوتز ، عن عمد وبإصرار ، قيمة انشاء المعبد والمدرسة الدينية وفقا لحساب الأرباح والخسائر . ولكن ماذا عما اقترح كبديل لهما ؟ » وما هو قلب الكيبوتز ؟ لقد أقام مؤسسه نظام تعليم غير يهودى ومدارس تخرج شبابا لا يفهمون اليهودية على الإطلاق ولا يعرفون كيف

يتصرف المرء في معبد وغير قادر على قراءة نص لاساتذة القانون ولا يعرفون شيئاً عن الأدب الدينى أو الفلسفة اليهودية » .

ولقد أخذ مناحم بيجين وزملاؤه طويلا على رجال حزب العمل ارتجال سياستهم وافتقارهم للخيال في اللحظة التى يتقرر فيها لاجيال قادمة مستقبل المجتمع الاسرائيلى . واخيرا انهم اقاموا فى الادارة الوطنية نظام « الحماية » ، وجعلوه نظاما تأسيسيا . .

ويقول أحد الأصدقاء المقربين من رئيس الوزراء : « اننا نختلف عن حكومة اسحاق رابين فى ترابطنا . لقد كان الفريق السابق منقسما داخليا، حيث كان كل عضو من أعضائه يفكر فى الاعتداء على جاره بطعنات فى الظهر أما نحن ، فاننا ننحدث نفس اللغة . أن ناحوم جولدمان نفسه يعترف بأن هناك أخيرا « حكومة وزعيم وسياسة » . فضلا عن ذلك ، لم يعد مجلس الوزراء يتعقد فى « المطبخ » ، كما كان يحدث فى عهد جولدا مائير . وأصبح الوزراء يدرسون كل الملفات . لقد كانت حكومة اسحاق رابين توحى أحيانا بأنها كالشخص الذى يتخبط بحثا عن طريقه . . أما سياسة ليكود فهى مكونة من نسيج واحد وترتكز الى أسس ايديولوجية . وهى سياسة محدودة ترتبط بأهداف جوهرية وفى عهد اسحاق رابين ، كان تسرب الانباء عما جرى فى مجلس الوزراء أمرا يحدث بصورة مثمرة ومنظمة : أما فى عهد ليكود فليس ثمة شئ من هذا القبيل » .

وهكذا نرى أن علاقات بيجين مع الزعماء التاريخيين لحزب العمل — سواء تعلق الأمر بين جوريون أو جولدا مائير — كانت تتسم باستمرار بنوع من التنافر فى الطباع . وقد وجد بيجين ، مع ذلك لغة مشتركة مع رجال أمثال موشى ديان وشيمون بيريز . ومن قبل انتخابات ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ كان بيجين زعيم المعارضة فى ذلك الوقت — يلتقى بالجنرال موشى ديان ليجريا معا تحليلات عميقة لكل أوجه السياسة الاسرائيلية . ولقد التقى دبان — غداة مناقشة (ادارها مؤلف هذا الكتاب) أجراها فى باريس بمناسبة صدور كتابه — سرا مع مناحم بيجين الذى كان موجودا حينئذ بالعاصمة الفرنسية .

وهناك بالتأكيد ، نقاط مشتركة قليلة بين هذين الرجلين فالأول (ديان زعيم عملى لا يهتم إلا بالاشياء الواقعية ، أما الآخر (بيجين فانه يخلص الى أبعد حدود الأخلاق لحزبه وآرائه الايديولوجية . ولايحترم ديان الا عددا قليلا من الناس ، ينسى صداقاته بيد أنه يصبر تماما على تسوية حساباته مع هؤلاء

الذين أساءوا اليه . وعلى الرغم من بلوغه الثالثة والستين من عمره ، الا أن لغته العبرية هي لغة الصابرا التي تتسم بفقرها في الكلمات الى درجة أنه يقوم — بين الحين والآخر — بسؤال أحد مستشاريه عن الكلمة العبرية المعادلة لتلك الكلمة الانجليزية . خلال الزيارة التي قام بها ديان في شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧ للولايات المتحدة ، أبلغه همفري النائب السابق للرئيس الأمريكى من المستشفى الذى كان يرقد فيه ، أنه يرغب في مقابلته لعدة دقائق فقط . ولم يستجب ديان لهذا الطلب على الإطلاق بحجة « ضيق الوقت » . وقد دفع له اليهود الأمريكيون حينما ألقى ، منذ عدة سنوات سلسلة من المحاضرات في أمريكا — أربعة آلاف دولار كل ليلة وعندما انضم في شهر يونيو سنة ١٩٧٧ : الى فريق مناحم بيجين متوليا منصب وزير الخارجية ، لم يكن قد استعاد هيبته داخل البلاد منذ أخطاء حرب كيبور والتي يعتبره قطاع كبير من الراى العام مسئولا عنها جزئيا . ويحتاج ديان اذن الى استعادة اعتباره أمام المجتمع أو بعبارة أبسط ، الى ان يعود الى العمل العام .

ولكن ما الذى يدفع مناحم بيجين الى الاستعانة برجل يتعرض لثل هذا النقد ليتولى مثل هذا المنصب البارز ؟ وإذا كان اختيار ديان لهذا المنصب يعتبر بحق عملية طيبة من جانب بيجين فان ذلك يرجع أولا — كما قيل — الى أنها تثير بعض التشويش في المعسكر المعادى . بيد أن بيجين يعمل أساسا على استغلال هيبة الجنرال ديان الدولية في المعركة السياسية التى تستعد لها إسرائيل . ولا يجهل بيجين ، أخيرا ، أن ديان ليس ملتزما متزمنا على الإطلاق وأنه يتمتع بقدرة على التصور يمكن الاستفادة منها في المفاوضات .

ومع ذلك ، وعلى مستوى الأفكار ، فان ديان لا يختلف كثيرا مع مناحم بيجين فيما يتعلق بالاختيارات الجوهرية فهو يرى أيضا أن تاريخ إسرائيل المعاصر يجب أن يرتبط بالقرون الماضية . وتشوب كلماته تفحة روحانية حيث يقول :

« ان مصيرنا هو أن نناضل باستمرار . . . وكما حدث في الماضي ، ويجب أن تركز اجابتنا اليوم على سؤال « ما الذى سوف يحدث » ؟ على التأكيد بأننا سوف نصمد أمام الصعوبات اننا لا نملك حولا حاسمة لمشكلاتنا التى أواسى نفس بالقول بأننا كنا مضطرين — منذ أربعة آلاف عام في تاريخنا الى النضال باستمرار .

« وإذا ما سألتهمونى عما اذا كان لدى جدول زمنى يحدد تاريخ انتهاء هذا النزاع ، فان اجابتى ستكون لا » .

« ما الذى سوف يحدث ؟ هذا هو السؤال اليهودى الحق . اننا نردده منذ أربعين قرنا ويمكن القول بأن الاهتمام بمعرفة ما الذى سوف يحدث لنا هو أمر يتعايش مع وجودنا . اننا نتطلع الى الاستقرار على اعتبار انه أمل أكثر منه حقيقة وإذا كنا قد حققنا - من حين الى حين - فذلك لم يكن الا لفترة مؤقتة تكفى لاستعادة القوة لمواصلة النضال » .

ويعتقد ديان - مثل بيجين - فى أعماق نفسه أن العرب لن يقبلوا على الاطلاق وجود دولة يهودية . « فهل هو قدر محتوم ؟ يقول منساحم بيجين : « أن فكرة القدر غريبة عن اليهودية . ويمكن تجنب الحرب ولكن لا يمكن تجنب السلام . ولا توافق الدول العربية اليوم على أى خطة اسرائيلية وفى الحقيقة : سيبدأ أعداؤنا فى التفكير جديا فى السلام عندما سيتوصلون الى خلاصة انهم لا يستطيعون القضاء على دولة اليهود » .

« اننا شعب صغير ، ولقد عانىنا الكثير قبل أن نصل الى هنا . . . ولن تركع أمام الطفاه لاننا نعرف أننا أبرياء . ان هذا البلد الصغير ملك لنا . نحن لم تلحق الضرر على الاطلاق بعربى واحد كما اننا لم نسمح الى ذلك على الاطلاق » .

« اننى أريد أن أقول اليوم ما كنت أقوله منذ سنوات . اذا كنا نستطيع أن نتذكر فسوف ننتصر على كل أعدائنا . انهم لن ينجحوا أبدا . وحتى اذا توصلوا الى السيطرة علينا فسوف نطيح بهم . وإذا لم يكن لدينا سلاح ، فسوف نصنعه . وسوف تساندنا روح الحرية » .

بيجين ، هل هو ادهابى ؟ ان الكلمة تدفعه بالأخرى ، الى الابتسام . لقد افترت عليه بعض الصحف الشيوعية ونسبت اليه أحيانا تصريحات ملفقة . ويقول بيجين : « مثل ذلك التصريح الذى نسبته الى ببساطة الصحيفة الشيوعية « صديقنا » التى تصدر فى أوروبا وواى (باللغة العبرية) : « سوف نجبر العرب على الخضوع لنا تماما » . ان الكذب له أجنحة . ومرة أخرى فى سنة ١٩٧٥ سألنى صحفى فى التليفزيون الانجليزى ، بفتة وبطريقة مباشرة عما اذا كنت قد صرحت حقيقة « بأننا سوف نقيم حضارتنا الجديدة على اطلاق حضارة العرب » . لقد نسبت الى صحيفة « روسيا السوفيتية » هذا التصريح فى مقال بعنوان « النازية ، ايدولوجية الصهيونية » . كيف يصدق هذا الصحفى الانجليزى اننى يمكن أن أدلى بمثل تلك الكلمات ؟ .

ويعتقد بيجين - مثل ديان - اعتقادا راسخا أن بعض الدول العربية مازالت ترغب في القضاء على إسرائيل ، وربما تلجأ الى تحقيق ذلك على مراحل . ولذلك لا يوافق بيجين على الاطلاق على النحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية التى يسميها « مركز تجميع القتلة » .

ويقول بيجين : « كان يتعين علينا أن نسمى هذه المنظمة بالاسم الوحيد الجدير بها وهو منظمة النازيين العرب » ويضيف بيجين منذكرا العملية الناجحة التى قام بها الكوماندوز الاسرائيليون فى مطار عنتيبي فى اوغندا فى شهر يوليو سنة ١٩٧٦ « . . . لقد أقسمنا ، نحن رجال هذا الجبل : قسم الولاء لذكرى أمهاتنا اللاتى ذبحن وأبائنا الذين قتلوا وأبنائنا الذين ماتوا خنقا باننا لن نضحى مطلقا بالشرف والدم اليهودى » .

ولا يرغب شعب آخر فى السلام بقدر ما نرغب نحن . وليس فى ذلك ما يشير الدهشة فلم يفقد أى شعب آخر ثلث أبنائه مثلنا . ولم يحدث أن أى شعب آخر فى كل انحاء العالم لم يحصل - طوال النصف الأخير من هذا القرن على عام سلام واحدة . ويجب أن نتذكر أنه حينما يقول أعداؤنا انهم لن يقبلوا توقيع اتفاق معنا الا اذا انسحبنا الى ما وراء حدود ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعد حل مشكلة الشعب الفلسطينى - فان ذلك لا يعنى سوى الرغبة فى القضاء على دولة اليهود » .

وام تكن حرب الايام الستة فى سنة ١٩٦٧ . بالنسبة لمناحم بيجين . سوى « حرب دفاعية » . وعندما يتحدث عنا ، فهو لا يتحدث كرجل سياسة ولكن كمؤرخ ان لم يكن كمتصرف ومن عادة بيجين أن يستخدم الكلمات الرنانة فى حديثه . وينبعث ذلك من أعماق طفولته ومن أعماق التاريخ . ولقد تعلمه من أستاذه ومرشده زيف جابوتنسكى . ولا يتردد بيجين - مثل أى حاخام - فى مراجعة القرون الماضية من تاريخ شعبه . ويقول بيجين .

لقد كنا محاطين - فى شهر مايو سنة ١٩٦٧ - بدول قوية . وكان ثلثمائة ألف جندي محترف مدربين على « الحرب المقدسة » يرغبون فى القضاء على اليهود . وكنا نسمع النداءات التى ندعو الى ابادتنا . لقد كانوا يقولون فى دمشق وعمان والقاهرة وبيروت . لقد حانت ساعة القضاء على دولة إسرائيل .

« وفى مجلس الوزراء ، كنا واحدا وعشرين يهوديا مجتمعين . اجماعا سرىا . ولقد كانت القائمة فى ذلك اليوم - أكثر قاعات العالم « انفلاقا » ما الذى يجب أن نفعله لانتقاذ شعبنا من « شوا » جديدة (وهى الكلمة

العبرية التي أطلقت على الكارثة التي تعرض لها الشعب اليهودي أثناء الحرب العالمية الثانية) . وفي هذا اليوم ، قدم أحد كبار ضباط الجيش تقريرا سريعا ينص على أن الحرب التي سوف تفرض علينا قد تكلفنا مائة ألف رجل . وكانت سلطات الجيش الرسمية تتحدث ، من جانبها : عن ثلاثين ألف قتيل على الأقل وقد أسفرت المعارك في النهاية عن مقتل ٧٩١ رجلا من أبنائنا وجرح ألفين آخرين . وقد كان ذلك بالنسبة لنا تضحية غالية . ولكن ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن الذين قتلوا كانوا مائة ألف أو حتى ثلاثين ألف .

لقد قلنا لأنفسنا في مجلس الوزراء بأننا لا نعرف كيف سيكون رد فعل الرأي العام الدولي ، ولكننا كنا ندرك جميعا - في هذه القاعة - أننا إذا أصدرنا الأمر بالهجوم فالأمر يتعلق هنا بحق الدفاع عن النفس ، فهي أنبل معنى من معاني تاريخ الإنسانية . ولم يكن الأمر يتعلق فقط بانقاذ الدولة ولكن بتجنب تعريض الشعب اليهودي لكارثة ثانية .

« وهناك قاعدة ذهبية في القانون الدولي . إذا ما حاربت أمة دفاعا عن نفسها وقضت على المعتدى بعد حرب ، فإن النتيجة تكون - في اتفاقيات السلام - في اجراء تعديلات في الأراضي . واني أقول ذلك بوضوح دون تعقيد .

« ولقد حدث ذلك ، بعد الحرب العالمية الأولى ، عند ابرام اتفاقيات فرساي و تريانون وسان جرمان ولوزان للسلام . . كما حدث ذلك أيضا بعد الحرب العالمية الثانية بعد توقيع ميثاق الأمم المتحدة في باريس سنة ١٩٤٧ ، بعد عقد اتفاقية السلام مع فنلندا وإيطاليا ، والمجر ورومانيا وبلغاريا . وكذلك بعد اتفاقية سنة ١٩٥١ التي أبرمت بين أمريكا واليابان واتفاقية سنة ١٩٥٦ بين الاتحاد السوفيتي واليابان .

« اننا نقول ببساطة أن هذه القواعد سارية المفعول بالنسبة لكل الشعوب وبالتالي فانها سارية المفعول بالنسبة للشعب اليهودي أيضا . .

« لقد كانت حرب الأيام الستة في الحقيقة حدثا « ثوريا » سواء بالنسبة ليهود العرب أو بالنسبة ليهود الشرق . ويأتي آلاف من اليهود - وسوف يستمرون في المجيء من بلاد المهجرة اليهودية المعتادة ليلحقوا بنا . وقد جرت العادة على أن يفادر الناس البلاد التي يعيشون فيها - بل وأحيانا أوطانهم - ليحسنوا مستوى معيشتهم . واليوم ، يأتي آلاف اليهود الى

هنا وهم يدركون أن مستوى معيشتهم سوف ينخفض . وفي الحقيقة فإن الامر لا يتعلق بالهجرة ولكن بالعودة الى الوطن » .

ويعتقد مناحم بيجين أن حرب كيبور في شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ - لم تكن ممكنة « لولا كل الاخطاء التي ارتكبت عندنا » وفي الواقع ، كان العرب يعرفون أننا لم نكن مستعدين . ولقد رصدوا ما كان يحدث عندنا ، وقبل يومين من الهجوم ، قال السادات : الآن ، فات الاوان لكي يستعد الاسرائيليون .

واليوم ، يعرف كل فرد الخطأ الفاحش الذي ارتكبناه في ذلك الوقت . أننا لم نتحرك وكانت قواتنا بعيدة عن الجبهة . ولقد وجد ٤٣٦ من شبابتنا أنفسهم على الضفة الغربية لقناة السويس في مواجهة سبع فرق مصرية . وكان العدو يعرف على وجه الدقة توازن القوى على هذه الجبهة .

« وفي الجولان في الشمال ، كان هناك ١٧٠ من دباباتنا في مواجهة ١٤٠٠ دبابة سوفيتية - سورية ، وهنا ايضا كان العدو يعرف بالتحديد نسبة القوات في الميدان وهكذا اندلعت حرب كيبور هذه . وبعد ، فأننى اكرر انه ليست هناك حرب لا يمكن تجنبها ولا أقبل الحجة التي تقول بأن السياسة التي كنا نتبعها هي التي أدت الى هذه الحرب .

« ويمكن أن نثبت اليوم انه كان يمكن تجنب الحرب العالمية الثانية اذا لم يكن قد تم ابرام اتفاقية ميونخ سنة ١٩٣٨ واتفاقية موسكو في شهر اغسطس سنة ١٩٣٩ . وقد كان من الممكن - بدون هذين الخطأين التاريخيين - تغيير وضع الانسانية واننى أقول بكل وضوح أن العدو هاجمنا بسبب ارتكابنا لخطأ جسيم قبل الحرب في سنة ١٩٧٣ . بيد أن ذلك لا يتعلق على الاطلاق بسياستنا التي كانت سليمة فلم يكن يتعين اجراء أى تغيير في الموقف دون ابرام اتفاقية سلام » .

ولم يكن مناحم بيجين يميل ، لفترة طويلة الى استراتيجية الدكتور هنرى كيسنجر أو الاهداف التي يسعى لتحقيقها ، وفي حين كانت جولدا مائير ترى أن هنرى لم يكن على الاطلاق « عدو اسرائيل » (ولكن لماذا يحب ان نتوقع منه أن يساعدنا فقط لمجرد انه يهودى ؟) ، فان بيجين بوضوح الفارق بصورة اكبر : « أننا نعرف عددا كبيرا من اليهود الذين بذلوا جهودا جبارة ليثبتوا للجميع أنهم على الرغم من أنهم يهود - يتصرفون معنا « بموضوعية » وكانت النتيجة ، بالنسبة لنا ، مريعة » .

والنقطة المشتركة الوحيدة مع وزير الخارجية الأمريكية السابق (بخلاف الذكاء الجدلى) هى أن بيجين يحب كثيرا - مثل كيسس-نجر « القصص الجميلة » وخاصة اذا كانت معطرة بروح الفكاهة اليهودية واذا كانت سياسية .

وهناك قصتان يفضلهما بيجين لأنهما تعودان به الى فترة من حياته لم يكن النضال يفتقر فيها الى الرومانسية .

« لقد كان ذلك فى عهد روسيا الستالينية . وكانت أكبر صحيفتين روسيتين هما : « البرافدا » (الحقيقة) وهى لسان حال الحزب ، والأزفستيا (الأخبار) لسان حال الحكومة وكان المواطنون فى كل أنحاء البلاد يتغامزون ويقولون :

ان صفحات « البرافدا » لا تتضمن أى أخبار ، كما ان صفحات « الأزفستيا » لا تقول الحقيقة .

وتتعلق القصة الثانية أيضا بالعالم السوفيتى :

« ما الذى سوف يحدث بعد تأسيس الشيوعية » ؟

- سيكون لكل مواطن سوفيتى طائرته الخاصة .

- وما الذى ستفعله بطائرك ، يا ايفان ايفانوفيتش .

- يا له من سؤال يا بيوتر بيوتروفيتش ! ساقب فى منزلى فى موسكو وبمجرد أن أسمع فى الاذاعة أنهم يوزعون الخبز فى كييف ، سوف استقل طائرتى مباشرة اليها لآكون أول من يقف فى الطابور .

العودة الى اليهودية

((يهود بدون الله ، هل يعقل ذلك ؟

بل لا يمكن أن نتصور يهوديا بدون اله ؟)) •

دوستويفسكى

المجتمع العلماني :

لم يفتصر التغيير على الناحية السياسية . ومن المؤكد أن « بورة ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ الثقافية » ليس لها ابة علاقة بالتورة الثقافية التي حدثت في الصين منذ عدة سنوات بيد أنها لا تقل عنها واقعية فقد فرر رجال من كل الفئات العودة الى التقاليد القديمة - التي تخلوا عنها في وقت من الاوقات - والانطلاق في التنقيب عن جذورها .

أن « التوبة » او العودة « بدعة اختلقها اليهودية التي ترى انه ليس هناك أى شيء قتل قد ضاع نهائيا مادام هناك تائبون هم في الحقيقة افضل من أكثر الناس عدلا » .

وكانت هذه الظاهرة الدينية قد بدأت - في الحقيقة - غداة حرب الايام الستة أمام حائط المبكى المجرد حيث عثرت طائفة من الجنود الملحدون الذين تملكهم الحزن الى حد الانخراط في البكاء على جزء من ذكرى شعبها .

ومنذ ذلك التاريخ ، كانت تؤوب ، في كل عام ، ضمائر قلقة وارواح متعطشة المتطلعة الى حظيرة التقاليد ، سعيا وراء « شعلة القانون » ومصدر الحياة .

ومنذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ ، اكتسبت هذه الظاهرة ، بفضل التغيير الذي طرأ على المسرح السياسي ، شيئا من الأهمية . ومن المؤكد أن ذلك لا يمثل بعد حركة مد ولا موجة منبعثة من الأعماق .

ولكن هناك بالفعل آلاف من الشباب - ومن هم دون الشباب - من اصل مختلف يمارسون « العودة الى التقاليد » . وفي هذا الشأن يقول يوسف زافين مؤلف دائرة المعارف التلمودية . « سنكتسح حركة العودة هذه ، المجتمع العلماني » .

أى مجتمع علماني ؟ في الواقع ، كان الاباء الذين أسسوا الدولة من اتباع مذهب الملحدون والعقلانيين والماركسيين وقبل كل شيء المعادين ليهود الشتات ولم يكن من الواجب أن تكون الحياة في الدولة التي كانوا يحملون بتأسيسها - مشابهة على الاطلاق لتلك الحياة التي كان يعبشها أبائهم

وأجدادهم في الاحياء اليهودية في أوروبا . وهكذا أهملوا الدين من تاريخهم كما قدرت التقاليد - كل التقاليد - وفقا لحساب الارباح والخسائر .

وكانت التوراة تدرس باعتبارها أحد كتب الأساطير . وكان أبطالها يجردون تماما من كرامتهم وقديسيتهم ويهوديتهم . وكانوا يسعون الى تجاهل الفى عام من الثقافة والتعليم اليهودى . وما كان الشباب والبالغون بجهلون ماهية الأدب التلمودى وأنه اذا كان النبى أموس قد أفلت من هذا النديس العام فما ذلك الا لأنه كان « يمكن استعادته » .

وكان يمكن تقديمه ببساطة على اعتبار أنه أحد واضعى نظرية الاشتراكية اى كأحد أجداد تونونون ماركسى .

وباختصار ، كان الامر يتعلق بالنسبة لهؤلاء الاباء المؤسسين ، بخلق انسان آخر كان على نقبض الانسان اليهودى التقليدى : نصفه من اسباطة والنصف الآخر من القدس . وهذا هو السبب الذى من أجله أنتهجت - فى الخمسينات وغداة انشاء دولة اسرائيل - سياسة منهجية للتخلص من الصبغة اليهودية وعلى سبيل المثال : كان الشباب فى سن المراهقة - الذين ينتمون الى عائلات تقليدية ، من المغرب أو من اية دولة اخرى يرسلون رأسا الى مراكز التدريب فى « هاشومير هاتزئير » حيث كان يتم تجريدهم من التقاليد وثقافتهم وذاكرتهم .

واستبدل الدين بأفبون آخر هو تقديس الدولة .

وهكذا يكون فى البلاد معسكران متميزان ومتوازيان ، يجهل كل منهما الآخر ومتعاديان أشد العداء وليس بينهما اية وسيلة اتصال ، وهما : المعسكر الدينى والمعسكر العلمانى .

وكان أنصار المعسكر الدينى يعتبرون العلمانيين « أشخاصا غير يهود يتحدثون العبرية » ، نوعا من الاستعمار الغربى الأجنبى لمصادر ثقافة وتاريخ الشعب .

ولم يكن المعسكر العلمانى - الذى كان عدد أعضائه أكبر كثيرا من أعضاء المعسكر الدينى - يحتفر كثيرا اليهودى الموالى للمعسكر الدينى الذى كانوا يعتبرونه متخلفا ومن يهود الشتات ورجمبا وذا افق محدود . ويقول ادبن شتاينز الس فى هذا الشأن : « وهكذا كان المرء يحتاج لكى يكون يهوديا متدينا فى اسرائيل الى شجاعة فائقة يتعين عليه الانصاف بها لكى يكون صديقا حميما للمحتالين وتجار المخدرات » .

ولقد بلغ الامر الى حد ان المعسكر الدينى كان يوحى أحيانا وكأنه « مخزن وطنى » او متحف يتم التحفظ فيه - على سبيل الذكرى التاريخية - على نوع من الحياة . فى سبيله أن أجلا أو عاجلا ، الى الاختفاء من الخريطة الاجتماعية للبلاد .

فهل نجح هذا الأسلوب فى التدريب ؟ لا يبدو ذلك على الإطلاق لقد ظهر نائية - من خلال شهادة السباب - فكرة قدبمة تقول : « لقد نجح آباؤنا فى القضاء على التقاليد ولكنهم فشلوا فى احلال أى شئ آخر محلها سواء أكانت قيما أو ثقافة أو إيمانا » .

ويقول مناضل اسرائيلى شاب : « أن حاتنا الدنيوية تبدو لنا قائمة فارغة » . ويقول شاب من شباب الكمبيوتر « فى الوضع الراهن ، ليس هناك مخرج آخر سوى العودة بصورة جادة الى التقاليد . ولقد بلغنا الآن مرحلة يجرى فيها نوع من العودة الى الحياة اليهودية » .

ويقول وزير التعليم الجديد من جانبه « ينبغي اضعاء الصبغة اليهودية على الاسرائيليين . ويجب الا يشعر تلاميذنا بأدنى شك والا يكون لديهم أى تساؤل يتعلق بالهوية أو الذات أو الارتباط أو الحق أو الواجب أو الهدف . كما يجب أن تكون علاقاتهم بتراث اسرائيل وبالارض والشعب مقدسة » .

ويرى زيبولون هامر - الذى يمثل الجيل الجديد للحزب الدينى داخل حكومة بيجين - أنه يتعين على الاسرائيليين الاستمرار فى العودة الى الأصول الى القيم اليهودية ، والأخلاق اليهودية ، والأعمال الطيبة وحب شعبنا ووطننا .

ويتساءل طالب اسرائيلى فائلا : « فى كل ما نفعله فى هذا البلد ، أين هو الشيء الذى يعبر عن هويتنا وذانيتنا اليهودية ، ان ثقافتنا لا يجب أن تكون مجرد تقليد لأساليب الآخرين » .

لقد تفر مظهر المجتمع الاسرائيلى بعنف فيما بين حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ - وحرب كيور سنة ١٩٧٣ . لقد اختفى الجو الأسرى الذى كان سائدا فيما مضى ، واختفى معه القليل الذى كان باقيسا من التركة اليهودية .

وأصبح الشباب يهزأ بوفاحة بأقدس مبادئ الصهيونية . وأصبحت كلمة الصهيونية نفسها محل سخرية طبقا لأصول روح الدعاية اليهودية

الأزلية . وهكذا يصنف أبا ايابان وزير الخارجية الاسرائيلية السابق تلك الحقبة من تاريخ اسرائيل فيقول : « يعتقد الصابرا أن القوة التي تتسم بها سياسة ما ليست في التقيد بمذهب أو آخر ولكن في أن تسفر عن نتائج ملموسة . وكانت النظرة الخيالية بأنهم « منار الأمم » تبدو ادعاء يقدر ما هي وهمية بالنسبة للجيل الشاب الذي كان يعتقد أنه تحمل نصيبه من العبء بما فيه الكفاية دون الاهتمام بعبء الآخرين . . بل وفي الكمبيوترات نفسها بدأت البساطة التي كانت سمة الأزمنة الغابرة تضع . . وكان مصطلح « حبل اسبرسو » يصف تماما هذا الشباب المستعد لتقديم كافة التضحيات إذا ما استدعى الأمر ، ولكنه يصر فيما عدا ذلك ، على أن يعيش حياته بأقصى قدر ممكن من الرفاهية .

هل نسير نحو النيوقراطية :

هل يعد منحهم ييجين مسئولا - قليلا أو كثيرا - عن الظاهرة الجديدة الخاصة بالعودة الى الأصول ؟ هل هو الذي دعا إليها أم أنه أيدها ربما يكون قد هدى - أساسا - شعبا الى أماله الخاصة ؟ وقد تأثر شعب الكلمة الالهية بهذا الرجل السياسى الذى يتحدث وكأنه صفحة من التوراة بذلك اليهودى العنيد الذى بكى فى أحد معابد بوخارست . . والذى ربما يعطى انطبعا سيئا لفئة من الشعب .

أن الشباب الاسرائيلى - الذى يعانى من عدم الرضاء ويتصف بالفضول ويلزمه القلق يشعر لدى سماعه حديث ييجين ، أن تاريخ شعبه يبعث من جديد . انه يرى الحياة تعود مرة أخرى الى هؤلاء اليهود الذين كان لديهم تصميم وليسوا مجرد أصحاب رسالة وكان أمامهم مصير وليس مجرد مستقبل وسبيل للحياة وليس مجرد عقيدة .

ومن هم هؤلاء اليهود الذين يعودون مرة أخرى الى التقاليد ؟ أنهم ينتمون الى كل الطبقات الاجتماعية وكل الاتجاهات السياسية والفلسفية . ويقول ذلك السفير السابق الذى كان ماركسيا سابقا - عضو كيبوتز بيت اودين فى الجليل وصديق بن جوريون الحميم : « لقد تخلت عن « رأس المال » وأبدلته بالتلمود وتفسيراته . لقد وجدت جزءا صغيرا من حقيقتى » .

ويساءل أودى زوهار - نجم التلفزيون الاسرائيلى الذى يتمتع بشعبية كبرى حيث يعتبرونه جين يان الاسرائيلى - متسائلا : « هل يملك

مجتمعا - اذا لم يستخدم كلمات مثل الله او الأخلاق - بديلا آخر سوى العودة الى اصوله » ؟ .

ويتساءل أبا ايان أيضا وهو يتحدث عن تلك الغريزة المتأصلة من آلاف السنين . « فلنصلح أنفسنا من جديد ، ان نكون فخورين بأصولنا اليهودية ، وأن نشب في اذهان اطفالنا المعنى الذى تحمله تركتهم ، وأن ننقد مجتمعنا من مخاطر الانحلال » .

ويقول الشاعر أبا نوفر « انها ظاهرة ايجابية يجب تشجيعها » . فى حين يعتقد الكاتب حاييم جورى « باننا نعش زمن الصابرا القلق والعائز »

كيف نفسر اذن هذا المطلب الدينى وذلك البحث عن « الشعلة الجديدة » ؟ بقول جان لوك الوش : « أن المطلوب هو البحث عن هوية ، واسترداد الانا الثقافية والروحية المدمرة ، والبحث عن الجذور فى الذاكرة وكان الجذور الجديدة المتأصلة فى الأرض العبرية لم تعد تكفى تسعيا لمحكوما عليه بالاضطراب ، وأشخاصا « تائهين » ، معرضين لغارات عالم شرير ولعدو جائم يعرض باستمرار وجودهم للخطر . وهكذا يلتقى البحث الفردى مع القلق الاجتماعى ويتعدى عليه .. ولا تقتصر حركة العودة على مجرد أنها لقاء مع رب اسرائيل ولكنها تدخل فى اطار صعود جديد يائس للأرمان الغابرة ، ولأصول التقاء الصوفية فى التاريخ . وتريد اسرائيل استعادة روح عن طريق قفزة مهولة الى الخلف تمحو كل محاولات « التطبيع » التى بذلتها الصهيونية السياسية .. وطالما أن مصادفات التاريخ المؤلم لم ترد اسرائيل الى الوضع اليهودى ، وأن القانون الدولى لم يعد سائدا فيحسن أن نسترد فى غمرة الحركة نفسها شخصيتنا السابقة وشرعيتنا التى تمنحها لنا التوراة وحدها .

ويشجع أسلوب الحديث الجديد للسلطة التى تولت حكم البلاد منذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ بوضوح ظهور وتطور « حركة العودة » . الأمر الذى يعطى المعسكر الدينى الديناميكية والقوة فى مواجهة القطاع العلمانى . فلم يعد يعانى من العقد أو الالتزام المنحفظ . وأصبح من الآن فصاعدا ، يتحدث بصوت عال ويطالب بالمزيد ، ولم يعد موضوعا للسخرية التى كانت تدور فى السهرات البرجوازية وهو الذى يقوم ، حاليا ، بمهاجمة المجتمع المعادى الذى سهمه بالارتواء من « احواض مصدعة » . ولم تعد اليهودية الدينية فى اسرائيل - مع اختلاط كل طوائفها المختلفة - فى ظل حكم بيجين

تعانى مما كانت عليه حتى الآن من انطواء وتركيز على اختلافها . لقد استعادت حق ابداء رأيها . ولم تعد تكتفى بالتعبير عن وجودها ولكنها تعلن على الملأ قضيتها ضد المعسكر المعادى : ما الذى فعلتموه بشبابنا ؟

لقد أصبح المعسكر الدينى اليوم عدوانيا بقدر ما كان بالأمس ورعا ومنطويا وغير واثق من نفسه . وهو يراقب القواعد المحطمة للقانون العلمانى القديم ويطالب الجميع بنسجيل ذلك ، رسميا . كما لا يعترف فى نفس الوقت بكل الكتاب العلمانيين الذين يتحدثون باسم المجتمع الاسرائيلى الذين كانوا - حتى عهد قريب - يتباهون علنا بقولهم : اننا أولا اسراييليون ثم فقط يهود . ذلك القول الذى أصبح مرفوضا من الآن فصاعدا . وأصبح الاسراييليون يقولون اليوم أكثر فأكثر : اننا يهود قبل أن نكون اسراييليين .

وينوهون من الآن فصاعدا الى أن الدولة اليهودية هى « ثمرة الرؤية العريقة » وواقع التاريخ اليهودى . « واذا كانت شهادة ميلاد الدولة اليهودية قد صيغت اليوم فليس هناك أدنى شك فى أنها كانت تتضمن الاشادة قبل أى شىء برب اسراييل والأنبياء وكل معلمى اليهودية الذين حافظوا على بقاء الشعلة . ومن يدري فربما يأتى اليوم الذى تعاد فيه صياغة شهادة الميلاد العلمانية - التى كتبت سنة ١٩٤٨ وفقا للروح الجديدة .

ويزهو المعسكر الدينى بأنه لم يعد ، الآن ، مضطرا للعمل بطريقة سببه سرية وأن طريقته الأكاديمية - التى كانت تستقبل حتى الآن الهيئز الأمريكين الذين يبحثون عما يسمونه كاتمانوو الجديدة ، أو ارواحا ضالة - بتردد عليها اليوم جامعيون من ذوى الشهادات وشباب برجوازيين .

ويمكن للسلطة من جانبها ، أن تفيد فى كشف حسابها الخاص بما حققته من نجاح والتقارب الذى حدث فى نفس الوقت ، بين اسراييل ومختلف عناصر يهود الشتات فى مكان يوجدون فيه . ولم يكن القاسم المشترك بين فرعى الشعب اليهودى - الفرع الذى تتكون منه دولة اسراييل (٢٣ ٪) والفرع الذى يعيش فيه بقية أنحاء العالم - فى يوم من الأيام بمثل هذه القوة التى هو عليها فى ظل حكومة مناحم بييجين . وعلى أية حال ، أو ليس للنهضة الدينية التى نراها فى اسراييل امداد ، وبعض الاصداء فى كل من باديس ولندن ونبيورك وجوهانسبرج ؟

أن اليهودية ليست دين الدولة في إسرائيل (بعكس الاسلام الذى هو الدين الرسمى فى أغلب الدول العربية) ولكن هل أصبحت بالفعل دين الدولة ؟ ولن يؤدي ذلك بالمطرفين من أتباع التطبيق المتشدد فى ظل ظروف موالية لهم مثل هذا القدر الى زيادة حدة الجانب الاكثريوس لاسرائيل ؟

وان يؤدي ذلك الى تشجيع المتطرفين فى تشدهم على الاعداد - داخل البلاد - لبعث مدينة تركز فقط على التقاليد ، دون انفتاح حقيقى على عالم القرن العشرين واولا ، ما الذى سوف يقترحونه على المجتمع الحديث فى اسرائيل ؟ وما هى خطتهم الاجتماعية وفلسفتهم ؟ وعقيدتهم ؟ وما هى الحلول التى يقترحونها لحل كافة المشكلات المتعلقة التى تثيرها المدينة فى وجه اليهودى فى نهاية هذا القرن ؟

هذه هى فى الحقيقة ، الأسئلة التى يمكن أن تثار امام استعادة المجتمع الدينى فى اسرائيل لقوته . فاذا كان من الممكن أن تساعد هذه النهضة يهودية الحاخامات على الخروج من جزيراتها ومقارها ، ووضع حد لاضمحلال الفكر الدينى ، وايجاد التوازن الضرورى بين القيم المبدئية للشعب اليهودى والأعمال التى تفرضها الحياة وحقيقة العالم ، فمن المؤكد أنها سوف تكون نهضة مفيدة . ولكن هل سيقصر استخدامها على ذلك فقط ؟ اليس هناك احتمال فى أن تقوم صلات خاصة ومفضلة بين الدين والسياسة ؟ ولن يؤدي كثرة الدفاع المطلق عن قلعة « الهالاكها » (الشريعة اليهودية) الى منح الدين سلطة فى مجال السياسى ؟

ان خطورة دهن يتسم بالنضال تكمن فى أنه قد يصبح فى يوم من الأيام دينا مسيطرا وليس دينا متسامحا . فهل اسرائيل « العودة » بمنأى عن هذا الخطر أو أن ذلك ليس سوى العلامة المبشرة « بصهيونية الله » وبالتيوقراطية حكومة الالهة يشرف عليها رجال الدين) .

لقد كتب روبين ماس - الذى كان يطرح على نفسه هذا السؤال بالفعل - فى سنة ١٩٤٦ فى كتاب « الدولة اليهودية » - يقول اذا كان الايمان يحافظ على وحدتنا ، فإن العلم يحررنا . وبالتالي فاننا لن نقبل أن يعمل رجال ديننا على تنمية الذبذبة النيوقراطية . وسوف نتمكن من ابقائهم فى معابدهم كما تبقى جنودنا المحترفين فى ثكناتهم .

البيجينية :

ما هي البيجينية ؟

أنها العمل الذى يقوم به رجل فى محاولة لدفع التاريخ والسيطرة عليه
أنها حياة مكونة من الجراءة والخفة وأيضا من الثقة فى السير على الطريق
السليم .

لقد اختار بيجين طريقة وهو مازال بعد شابا يافعا : أن نضاله يستند
فى نفس الوقت على عقيدته وفعله والكتاب ، ولكن أيضا ، عند الحاجة ،
على السيف . أن الموت والألم لا يثيران خوف الرجل الذى يؤمن إيمانا
مطلقا بفكرته وعقيدته .

لقد كون بيجين لنفسه - طوال حياته - فكرة معينة عن بلاده وشعبه
وأرضه . وقد كان من الممكن أن يغير هذه الفكرة وعندئذ كان الطريق الى
السلطة سيفتح أمامه على مصراعيه .

ولكنه فضل أن يظل على مبدئه طوال ٢٦ عاما .

أن بيجين لديه أحساس بالمصير وباغراء التاريخ . فهو يتطلع الى أن
يسطر اسمه فى قائمة مؤسسى اسرائيل الكبار - أن لم يكن فى قائمة انبيائها
وهو يريد - أكثر من أى شخص آخر - أضفاء معنى جديد على نضاله
الماضى ..

وكان اندريه مالمرو يقول : « ان المصير هو خطوة تتسلل من باب نصف
مفتوح » . وهذا ما فعله مناحم بيجين فى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ ولم يعد
منذ ذلك التاريخ ، مجرد زعيم ليكود الذى رأسه وكذلك المجتمع السياسى
الاسرائيلى . أنها فى نفس الوقت ، حياة نضال أصبحت موثقة ومؤكدة .
أنها بالنسبة لبيجين الانسان ، ذكرى جديدة لوجوده ، ومصير معكوس .

بيد أن هناك ، فى الواقع شيئا مؤلما الى حد ما فى حياة هذا الرجل
الذى أصيب بأزمة قلبية فى نفس اليوم الذى توج فيه نشاطه السياسى
وتحقق فيه الهدف من نضاله : أى تولى السلطة . ويدرك مناحم بيجين ،
منذ ذلك الحين أنه دعى لتولى الأمور فى وقت متأخرا قليلا . ولذلك فإنه
يمجل فى القيام بمهامه . وهو يريد تكريس الوقت القليل الذى يتبقى له فى
استكشاف سبل السلام مع جيرانه العرب وأيضا تشكيل اسرائيل الغد

بقدر المستطاع واعادة هذا الشعب صعب المراس (فليس من السهل حكم اليهود) الى حقائق الأمس وأصالة تاريخه . وعلى الرغم من أن الصهيونية كانت باستمرار على حد قول انى تريجر - « في العالم ، وفي مواجهة العالم ومع العالم » ، إلا انها يجب أن تكون - على حد قول بيجين مع اليهودية .

والبيجينية عقيدة أيضا

أن وصول زعيم ليكود الى السلطة يشكل أيضا انتصارا متأخرا لريف جابوتنسكى جاء بعد وفاة بن جوريون . أو نوعا من انتقام الصهيونية الوطنية من الصهيونية الاشتراكية . علما بأن بيجين لا يستخدم الفاظا مثل كلمة « انتقام » .

وهل يمكن أن تجيب هذه العقيدة على تساؤلات المجتمع الاسرائيلى في أعوام الثمانينات ؟ إلا تعد حبيسة لايدولوجيات ظهرت في نهاية القرن الماضى وربما تجيب على اسئلة لم يعد أحد يشرها ؟

وهل تستطيع الشبكات السياسية التى أقامها - بالدم والنار - جابوتنسكى وانصاره أن تفك رموز اسرائيل الصناعية والمتقدمة ثقافيا التى آلت الى بيجين ؟ وليس من المحتمل أن يؤدى الطوق العقائدى - الذى كان يتحلى به ليكود وهى فى المعارضة الى شل حركتها اليوم وهى فى السلطة؟ وأخيرا ، هل يستطيع بيجين تنفيذ فكرة سياسية جديدة يمكن أن تصمد فى مواجهة صدمة المستقبل ، وتمنح شباب بلاده أسبابا للبناء والأمل ، والعمل بحيث يكون لجيل الرواد خلفاء جديرون به ؟

والبيجينية هى ، أخيرا ، امكانية التأقلم مع الأوضاع الجديدة وامكانية المباغطة .

من يخلف بيجين :

أن مناحم بيجين ليس له - مثل ديجول - خليفة . ودون شك ، فإنه يجيب حين يطرح عليه هذا السؤال بقوله « لسنا بملكية اننا جمهورية وأنا جمهورى بكل كيانى .. بيد أن عقيدتى لن تجد من الناحية العملية - من بدافع عنها ، متى انسحب بيجين من الساحة السياسية .

ويتسم هذا السؤال بأهمية خاصة بسبب الحالة الصحية لرئيس وزراء اسرائيل أن مناحم بيجين ينتمى فى الواقع ، الى هؤلاء « الرجال المرضى الذين يحكموننا » . فهو مريض بالقلب وقد اضطر - منذ انتخابه

لرئاسة الحكومة - الى دخول المستشفى عدة مرات - بل وقد عقدت بعض جلسات مجلس الوزراء في مستشفى ابخيلوف في تل أبيب حيث كان يعالج .

ويدرك بيجين أن الوقت ليس حليفه .. ويقول رئيس الوزراء الاسرائيلي : « لم يعد أمامي سوى بضع سنوات للعمل .. ولقد قلت منذ فترة أنه اذا ما أطل الله في عمري وبلغت سن السبعين فسوف أعلن ، في ذلك اليوم ، انسحابي ليس فقط من البرلمان ولكن من الحياة السياسية بتسفة عامة » .

واذا ما توصلنا - خلال السنوات الأربع القادمة - الى تجنب الحرب وبناء منازل لخمسة وأربعين أسرة تعيش الآن في حالة من البؤس وأيضا الى النهوض بالاقتصاد وبالوضع الاجتماعي لبلادنا ، سيكون في وسعي حينئذ أن أعلن في هدوء وسكون أنه من الأفضل أن يواصل المهمة رجل يصغرنى سنا .

ويعتزم مناحم بيجين أن يعيش - بعد اعتزاله الحياة العامة - في نعوت سيناء وهى ضيعة تقع بالقرب من العريش - مثلما أقام بن جوريون في سندی بوكر .

ويقول بيجين : « أرجو أن أتمكن بعد اعتزالي - من تأليف كتاب بعنوان « جيل الإبادة والنهضة » ، وهو مؤلف سيضم الفى صفحة على الأقل ويتكون مما لا يقل عن ثلاثة اجزاء .

« ان جيلي - الذى ولد في خضم الحرب العالمية الاولى ، لم يعيش ، في الواقع ، حياة طبيعية الالمدة عام أو عامين فقط ، لقد عانى من الحرب والالام والجوع والسجون والمعسكرات والنفى والدموع والدم . أنه جيل من أجيال التوراة .

اننى أشعر بنوع من الالتزام تجاهه يحتم على كتابة هذه الصفحات الالفين التى سوف أحكى فيها عن الهبوط الى الجحيم ولكن في نفس الوقت أبضا عن التحرير والارتقاء الى القمم .

« لقد عانى هذا الجيل أكثر من كل الأجيال التى سبقته في تاريخ إسرائيل ولا تقل شجاعته عن شجاعة المكابيين .

وأين مكانه في تاريخ الغد ؟ يقول بيجين : « لقد قلت مرارا لأصدقائي - وكررتة عشية انتخابات مايو سنة ١٩٧٧ - ان المركز الذي سوف يعهد الى مهما بلغ شأنه لن يساوى ، بكل تأكيد ، ما قمت به انا وزملائي حينما كنا نعمل في المقاومة وأثناء حرب تحريرنا :

ولقد أصبح مرض رئيس الوزراء منذ البداية مسألة سياسية . وتقوم الطبقة الحاكمة بتحليل تقاريره الصحية ، وفحص قسما وجهه ، كما تدور التعليمات في ردهات الكنيست وفي كل المنازل لدى ظهور أقل علامة اعياء عليه .

من الذى سيرث التركة ؟ ترى من هو الخليفة المنتظر ؟ ان ثلاث او أربع تخصصيات فقط من بين أعضاء الحكومة - التى شكلها مناحم بيجين فى شهر يونيو سنة ١٩٧٧ - التى - دعمها فى شهر اكتوبر وزراء ينتمون الى الحزب الجديد - الحركة الديمقراطية من أجل التغيير - داش هى التى يمكن ان تسعى للخلافة أما بقية أعضاء الحكومة فأغلبهم سياسيون متواضعون يفتقرون الى النفوذ السياسى والمعنوى الذى يتسم به الزعماء . وربما يشعر بعضهم بالراحة اذا ما عملوا كمدرين أو موظفين أكثر منهم فى حالة اضطلاعهم بمسؤولية وزارية ولم يكن بيجين قد اختارهم لمزايا شخصية أو للدكائهم السياسى ولكن لأنهم مندوبون عن أحزابهم الخاصة . وانهم ليسوا بمرشدين أو زعماء ولكنهم رجال أجهزة وتعالب سياسيون وكما كان يقول معلمه جابوتنسكى : « تذكر تماما أن أى حكومة تتكون من رجال متوسطين وبسطاء .. ؟

ويمكن اذن أن ينحصر السباق على الخلافة حين يبدأ بين أربعة رجال لكنهم جنرالات سابقون هم : عزرا وايزمان واريل شارون وايجال يادين وموشى ديان .

وبعد الأول أحد مؤسسى السلاح الجوى الاسرائيلى وكان قائد العمليات خلال حرب الأيام الستة . وكان دائما يتولى منصب رئيس هيئة الأركان ولكن حلمه لم يتحقق أبدا . وفى سنة ١٩٦٩ ترك الجيش ليقتحم ميدان السياسة وكان وزيرا للنقل فى حكومة الوحدة الوطنية التى شكلها جولدا مائير . وتتسم علاقاته مع مناحم بيجين - داخل ليكود - بأنها علاقات عاصفة . ان عزرا وايزمان بصمد أمام بيجين . ومع ذلك فقد عهد اليه أثناء الانتخابات بادرارة الحملة الانتخابية وقد قام بمهمته على خير وجه .

ويحتفل عزرا وايزمان - وزير دفاع مناحم بيجين - بغير صورته لدى الرأي العام كرجل جذاب من « رجال المظلات » ولكنه يفتقر الى مدى سياسى (على فرار بيجار ولكن على الطريقة الاسرائيلية) . انه المسال للرجل العسكرى التائه فى الحياة المدنية .

ولقد فاجأ - منذ فترة من الوقت - الطبقة السياسية وكاتبى افتتاحيات الصحف فى بلاده مفاجأة سارة . أولا بسبب الكتمان الذى يلتزمه : فهو لا يتكلم الا اذا كان لديه ما يقوله . ثانيا : بسبب ضخامة العمل الذى قام به فى القوات المسلحة الاسرائيلية . ويقول عزرا وايزمان « يجب أن نفكر بالفعل فيما سوف يكون عليه الساحال (الجيش) بعد خمس أو عشر سنوات » .

وهو صاحب عقيدة باتت مشهورة مؤداها أن الدفاع عن تل أبيب يثمر عند الخط الراسى المار بالقاهرة ودمشق » .

« أما اريل شارون فانه « المقاتل » . وقد كان قائد الفرقة ١٠١ وهى وحدة خاصة من رجال الكوماندوز لمقاومة هجمات « الفدائيين » وهو الذى قام بالثغرة « المشهورة فى سيناء أثناء حرب كيور . وكان فى سنة ١٩٧٥ المسنشار الخاص المؤقت لاسحاق رابين لشئون الارهاب . وما أن صفق وراءه باب حزب ليكود لى يؤسس حزبه الجديد شلوموزيون حتى وجد نفسه غداة الانتخابات وقد تقلد منصبين وانضم الى الحكومة الائتلافية برئاسة مناحم بيجين . وأصبح وزيرا للزراعة فى حكومة بيجين وأحد الموافقين الشرسين على اقامة المستوطنات فى الاراضى المحتلة بيد أنه لم ينبت بعد أن ملكاته كرجل سياسى ترمى الى مستوى مواهبه كرجل استراتيجى عسكرى .

ويتبقى ايجال يادين وموشى ديان ، وهما الوحيدان اللدان يمكنهما فى الحقيقة تولي منصب رئيس الوزراء .

ويتولى ايجال يادين منصب رئيس الوزراء ويقوم بمقتضى الدستور بأعمال بيجين بالنيابة فى حالة غيابه . وهو شرط من شروط العقد الذى أبرم بين ليكود والحركة الديمقراطية من أجل التغيير (داش) . ولقد كان لهذا الشرط دخل كبير فى قراره الخاص بالانضمام الى الحكومة وقد اسندت اليه عدة مرات بعض المناصب الحكومية ففى سنة ١٩٦٣ بصفة خاصة ، عرض عليه بن جوريون - الذى كان قد اختاره « خليفة له » منصب رئيس الوزراء ..

بيسد أنه فضل — طوال خمسة وعشرين عاما . العمل في الصحارى واستجواب الاحجار عن التاريخ الماضى . وفى يوم من الايام ، عرض عليه بن جوريون تولى منصب وزير التعليم الوطنى ورد يادين بقوله : « اننى لم أنته بعد من التنقيب فى حاتزو » .

فسأله بن جوريون قائلا : « هل تريد أن تقول بأن هذه الأعمال تبدو لك أهم من مسلكه التعليم فى اسرائيل » ؟

وأجاب بقوله : « اننى لا أستطيع المقارنة بينهما . ولكننى لا أستطيع النجاح الا اذا أفرغت جهدى كله فى شىء واحد . وأعتقد اننى باحث وأن طموحى الوحيد يتمثل فى هذا المجال » .

أما موشى ديان فان له كفاءة رجل الدولة . وهو يحظى الى أبعد مدى بثقة وصداقة رئيس الوزراء . ويحدد ديان السياسة الخارجية بالتنسيق مع بيجين وهو مشهور بتقبله للآراء الجديدة ولكافة المشروعات . كما أنه معروف بسرعة ملهمة وبأنه لا يحتمل الخوض فى أبحاث مطولة .

ومن الممكن أن يكون الخليفة المفضل لولا الريبة التى يثيرها فى بعض صفوف ليكود (وخاصة داخل حيروت ، وحدة مناحم بيجين) . وذلك نظرا لأنه الرجل القادم من الخارج ، انه لا ينتمى أصلا الى الحزب .

ومع ذلك فان كل هذه التكهنات لا تتعدى ، فى الوقت الراهن ، كونها مجرد « سياسة الخيال » . فليس هناك شىء مؤكد . بل ان الاسوأ أيضا ليس مؤكدا . ومع ذلك فمن الواضح أن الأحزاب التى تتولى السلطة فى اسرائيل تعاني من نقص شديد فى عدد رجال السياسة ومن عدم وجود بديل للهؤلاء الرجال .

فهبل سيضطلع رجال امثال يادين أو ديان بمسئولية البيجينية ؟ .

لقد لخص شيمون بيريز — الذى يعرف أحيانا كيف يصقل عباراته — ضخامة تلك المعضلة بقوله : « ان الفرق بين جابوتنسكى وبيجين يتمثل فى أن جابو تنسكى كان له وريث أما بيجين فلا » .

الأمس

ظهر في القدس في سنة ١٩٦٥ كتاب عن السياسة - الخيال وكان عنوان الكتاب يشكل في حد ذاته في ذلك الوقت نوعا من الاثارة « غداة تولى بيجين الحكم .. » ويصف فيه المؤلف - ويدعى بيروال ! بطريقة ساذجة وصول القادة العرب الى القدس للتوقيع على اتفاقيات سلام وذلك بعد ٢٤ ساعة من قيام اسرائيل بضم الضفة الغربية دون قيد أو شرط ويختتم هذا المؤلف الغامض « كتابه الخيالي » بعبارة لمؤسس الصهيونية تيودور هرتزل تقول « اذا اردتم ، فلن يكون ذلك مجرد حلم » .

وبعد اثني عشر عاما عاش الملايين الثلاثة من المواطنين الاسرائيليين حلما مشابها نسبيا ففي يوم السبت ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، وبعد انتهاء عطلة السبت المقدس وفي الوقت الذي يذكر فيه الناس في اغلب البيوت اليهودية وصول المسيح ، يهبط الرئيس انور السادات من طائرة بوينج مصرية على ارض اسرائيل . لقد جاء على حد قوله ليقتنع قادة وشعب اسرائيل انه يرغب بصدق في السلام . وكان الحدث مثيرا الى درجة ان الاسرائيليين لم يصدقوا أعينهم . ان « زلزالا » حقيقيا اجتاحت البلاد ، قويا بنفس الدرجة التي كانت عليها - منذ أربع سنوات قوة الزلزال حرب كيبور .

والتقى السادات وبيجين وراحا يتحدثان وجها لوجه في لقاء هو لقاء العصر ويقول حمدي فؤاد رئيس قسم الشؤون الخارجية في جريدة الاهرام القاهرة « ان ذلك أعظم من هبوط أول رجل على سطح القمر »

ويشعر ملايين الرجال بأن أزمة الشرق الأوسط . المجمدة منذ ثلاثين عاما بسبب « الرفض العربي » - تتعرض لتحول حاسم . لقد أزيل « المحظور » . ولا يقتصر الامر فقط على أن السادات يتحدث مع القادة الاسرائيليين ولكن الحواجز نهار أيضا من كل جانب . لقد تعرض المجتمع الاسرائيلي لاعمق تغيير عرفه منذ نشأة الدولة . وتؤمن الغالبية العظمى بحسن نية الرئيس المصري . ويصرحون باستعدادهم لتقديم التنازلات الضرورية . ومن المؤكد ان رئيس الوزراء مناحم بيجين لم يتنازل عن شيء - في حديثه المخيب للآمال في الكنيسة - بالنسبة للمطلبين الاساسيين

الرئيس المصري : الانسحاب من الاراضى التى احتلتها اسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ وضرورة اقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة .

هل يظل بيجين متمسكا بنظرياته المتطرفة ، فى مواجهة مبادرات الرئيس المصرى التى ننطوى على حسن النوايا ؟ ترى هل هو اذن اسير الى هذا الحد للحزب التى تؤيده والرجال الذين يساندونه ؟ والم يكن رحلة السادات الى القدس جديرة باجراء اعادة نظر شاملة للمبادئ التى تؤمن بها الدبلوماسية الاسرائيلية ؟

لقد انطلقت الالسنه بالحديث بعد مرور عدة ايام على رحلة السادات للقدس . وكان وزير الخارجية موشى ديان اول من اعلن على الناس « ضرورة اجراء تغيير » حينما قال « يجب أن نعد انفسنا لاتخاذ قرارات صعبة . لا يجب أن تضيق البلاد تلك الفرصة التاريخية المعروضة علينا . » ومن المعروف منذ البداية أن هناك تفاهما واتفاقا تاما بين بيجين ووزير خارجيته لدرجة أنه من المؤكد ان تلك الكلمات قد قبلت بناء على موافقة - بل واقتراح - رئيس الحكومة .

ويأتى بعد ذلك رد فعل أكثر الأوساط احساسا بمستقبل اراضى يهودا والسامرة وتتساءل صحيفة « هاتسوفيه » - لسان حال الحزب الدينى الذى يؤيد اقامة المستوطنات عما اذا لم يكن من الضرورى على الحكومة أن تعيد النظر فى بعض المبادئ الاساسية لموقفها .

ويقول هيو شوابن ماثير - أكثر ممثلى الجيل الدينى الشاب شعبية - « نعم هناك مشكلة فلسطينية وبمعونة الله سوف نجد لها حلا . » ويتحدث وزير التعليم الوطنى زيبيلون هامر فى الاذاعة عن ضرورة حل المشكلة الفلسطينية وضرورة أن تؤخذ فى الاعتبار من الآن فصاعدا المعطيات الجديدة التى أسفرت عنها زيارة الرئيس السادات .

لقد أصبحت الشعوب . فى كلا الجانبين - ناضجة للسلام ويعبر كثير من الرجال - هنا وهناك . رأيهم حيثما يرون التاريخ يغير مجراه .

ما الذى يدفع الرئيس المصرى الى أن يفجر - فى شهر اكتوبر سنة ١٩٧٧ - هذه الضربة السيكلوجية التى غيرت رأسا على عقب معطيات

مشكلة الشرق الأوسط ؟ لماذا القيام بمثل هذا الرهان الذى قد يؤدي الى اتارة جزء كبير من العالم العربى وربما الى تعريضه أيضا لنفس النهاية التى نعرض لها فيما مضى الملك عبد الله جد الملك حسين ؟ من المؤكد أن الوضع الاقتصادي فى مصر التى تعانى من أزمات خطيرة يشير قلق الرئيس المصرى . ولكن لماذا انظر حتى تولى الحكم فى القدس رجل مشهور بتسده المتطرف وانتخب أساسا بناء على برنامج انتخابى يرفض تقديم أى تنازلات للدول العربية ؟

لقد فكر السادات بجلاء ، منذ فترة طويلة ، فى مختلف النتائج التى قد تسفر عنها مبادرته . وهناك عنصران شجعان بعد تفكير طويل على تنفيذ مشروع هذه الرحلة . أولا : أعطى بيجين وديان ووزمان - منذ فترة طويلة - صورة مميزة للحكومة تتمثل فى أنها تعرف ما تريد . وهناك فرق شاسع بينها وبين الفريق الحاكم السابق .

ومن جانب آخر ، يشعر السادات بأن هناك أكثر من نقطة مشتركة بينه وبين الرجل الذى يتولى - منذ شهر يونيو سنة ١٩٧٧ - الحكم فى إسرائيل . ان السادات . مثل بيجين رجل عملى وعاطفى ويعانى الانسان من المرض وبالتالي فليس هناك مجال لاضاعة الوقت اذا ما كانا يرغبان فى اقرار النظام فى بلديهما . ويشعر كل منهما بأن مهمته تحمل معنى شبيه صوفى هو قيادة شعبيهما الى السلام والتنمية .

وكان جمال عبد الناصر يقول عن السادات : ان قمة طموحه هو الحصول على سيارة تابعة لوظيفته بسائقها وإيصالات البنزين الخاصة بها . وكان بن جوريون يتحدث باحتقار عن بيجين بقوله : «ذلك الشخص» .

ومثل السادات فان بيجين رجل وطنى - دينى وهما يوقنان بقيم مشتركة هى : العائلة والتواضع والشرف والأمانة والنزاهة . ولقد بدأ خط سيرهما السياسى نفسه بطريقة متشابهة . فقد ألف بيجين كتابا بعنوان « ثورة إسرائيل » . فى حين كان عنوان الكتاب الذى ألفه السادات « ثورة على ضفاف النيل » .

وفضلا عن ذلك ، يعرف السادات ان هناك نقطة أخرى مشتركة بينه وبين مناحم بيجين وربما تكون أهم النقط جميعها وهى : رفضه للشيوعية بكافة أشكالها .

لقد خلق الرجلان ليلتقيا

وقد قال الرئيس السادات في « مذكراته » . « شكرا لله الذي منحني رأسا يعمل بدقة مثل الساعة المضبوطة . وفي نهاية الأمر ، فأننى ناجح » .

من الذى يمكن أن ينكر أن رحلة أنور السادات الى القدس في شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ قد حققت نجاحا ؟ فقد حول لصالحه الرأى العام الاسرائيلى وأثبت للجميع حسن نيته الواضحة والزم حكومة اسرائيل بمحاکاته .

فهل من الممكن أن ينجح بيجين بدوره ؟ هل سيكون لديه القدرة على تعبير مجرى الأمور ، وترجمة الأقوال الى أفعال ، وتحقيق الامل الرائع الذى انبثق في اسرائيل يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ؟ وكما كتب وزير الخارجية السابق أبا ايابان فان ذلك ممكنا اذا لم تكن قد اختفت الصفات التى تتميز بها اسرائيل من تفاؤل ونيات وابداع وقدرة ثابتة على اسعاده سوانها . ويجب على بيجين أن يزيد من الامل ، وأن يقهر حائط الحقد ، ويخوض المسكلة السائكة للنسب الفلسطينى بصفة نهائية . ان انتزاع اسرائيل من الدائرة الجهنمية للانتصارات ، واخراجها من عصر ما قبل التاريخ ومن الجيتو الذى تعبش فيه لتجد نفسها في موقف غنى وجهل لوجه مع عالم عربى طرا عليه التغير : هذه هى المغامرة الجديدة والرهان الجديد لاسرائيل .

ويكفى أن يرغب مناحم بيجين في القيام بذلك وأن يتبع العالم العربى حديث الرئيس السادات « المتحضر » حتى يدخل رئيس وزراء اسرائيل— وهو ما زال على قيد الحياة — تاريخ شعبه .

لقد أصبح السلام — منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ — احتمالا يمكن تحقيقه في الشرق الأوسط . وقد قال الشاعر حاييم جورى : « أبها الاصدقاء متى رأينا السلام لآخر مرة ؟ ان هذه الأرض متعطشة له . . فكم من الوقت سوف يمضى ، ولم يبلغ عدد التوابيت التى سنحتاجها حتى تنطلق الصرخة : كفى ، كفى ؟ .



جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
القاهرة